ابن ناهد

ابن ناهد

"الحواضر المحتملة"

حسام الخطيب

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

رقم الإيداع: 23930 /2018

I.S.B.N:978- 977-6640-17-7

الطبعة الأولى 2018م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

حسام الخطيب

ابن ناهد

"الحواضر المحتملة"

رواية

إهداء خاص

إلى المُحمَّدَان

إلى ابني الحبيب "محمد" ابن "أماني" وليس "ابن ناهد"، ربما لا تأتيك مَلكَة الكتابة فهأنذا أكتب هذه الرواية بدلاً عنك لأجيب عن أسئلةٍ ربما ستخطر ببالك.

إلى أبي الحبيب "محمد" الذي علَّمني حب الحروف والكلمات منذ طفولتي، وكان السبب في خروج هذه الرواية إلى النور.

إهداء آخر

إلى أمي "خديجة" التي يتشرَّف بها هذا الإهداء أكثر مما تتشرف به.

وإلى زوجتي الحبيبة "أماني" مَن كانت معي في الضراء قبل السراء

إهداءٌ أخير

إهداء إلى فريق "صرخة فزع"، وبالذات العاق (محمد محيي طلبة)

الفصل الأول

(الولادة)

أحسَّت بمفعول المخدر ينسحب تلقائيًّا من عقلها وجزءٌ من وعيها يعود إلى الشعور، أضواء مختلفة داعبت عينيها، تشعر بحركةٍ ما ولكن لا تدري مصدرها، أصوات مختلطة أزعجت أذنيها وإن أراحت صدرها لأنها أدركت أنها لا زالت على قيد الحياة.

خرجت لتوّها من عملية ولادة قيصرية صعبة، هذه أوَّلُ ولادةٍ لها، والجنين تأخَّرَ في الخروج تسعة أيامٍ عن موعده، وكأنما أبَى الدخول بمحض إرادته في حياتنا المتعبة القاسية؛ فكان على الطبيب شق الجسد لإخراجه عنوةً ليشاركنا فيها رغمًا عنه.

لم تكن تفضِّل الولادة الطبيعية بأي حال؛ فهي نمط نادر من البشر يتألم حتى من الحضن القوي أو اللمسة الشديدة، كائن ملائكي رقيق بدون أجنحة، ولذا كانت الولادة القيصرية طوق النجاة لها لتريحها من عذابات الولادة الطبيعية وصرخات الوجع.

حاول زوجُها قبل الولادة حثها على المشي حتى تلد طبيعيًّا، ولكنها كانت تطاوعه في الذهاب وتصر على العودة في سيارة في الإياب حتى استسلم لذلك ولم يعد يدعوها مجدَّدًا لذلك.

ولكن ما خَشِيَتْهُ حقًا هو وفاتها خلال عملية الولادة، وسط كل هذه الفرحة الغامرة بقرب رؤية وليدها، مباركات الأهل العديدة، كان هناك هاجس داخلي ينفث في صدرها بأنها ستموت.

كان الباعث على ذلك الهاجس هو عملها السابق بإحدى المستشفيات، ومرورها بلحظات مؤلمة مثل تلك، عروس شابة في ريعان الشباب تخرج جثةً هامدةً، شاب يدخل لاستئصال شيءٍ بسيطٍ فيزيد المخدر عليه فيقتله، هي من قلب الوسط الطبي وتعرف جيدًا ما يحدث هناك، وتخشى أن تكون قصةً مثل سابقاتها، يسري عليها الموت فيفجع به ذويها.

تسمع عن متلازمة طالب الطب الذي يقرأ عن أعراض المرض فيظن أنه قد أُصيبَ به، هي على العكس عايشت الأمراض ورأت من المَرضى الكثير، والأسوأ أنها تعلم عن أسرار المستشفيات أكثر وهي معرفة مروعة لأنها ليست سارة.

لم يوجعها الموت كفكرةٍ، لا تنكر أنها ليست مستعدةً ولكنها تعلم أنها ستقابل ربًّا رحيمًا، خلق الإنسان وخلق له ظروفه؛ فلن يعاقبها على تقصيرها، ولكن فكرة أن تترك طفلاً رضيعًا يتيمًا بلا أم، أنهكت قلبها المتعب.

أمسكت بيد زوجها بقوة قبل الولادة وهي تقول له:

- لو مُتُّ، لا تتزوج بعدي، لا تحضر لابني زوجة أب، ولو فعلتَ أعطه لأختي تربيه هي أولى به.

كانت تردد ذلك الحديث منذ شهورٍ حتى أشفق عليها زوجها من أن تكون قد رأت رؤية في المنام أخافتها أو تشعر بشيءٍ فلا تخبره فابتسم وهو يضمها إلى صدره قائلاً:

- لا داعي لهذا الكلام، لن تموتين، نحن من غيرك لن نعيش.

- لا تخدعني بتغيير مجرى الكلام، عدني فقط.

- أعدك ألا أحضر لابنك زوجة أب.

لم يمنعها ذلك الوعد وأنها اختارت أفضل أطباء (الإسكندرية) أجمعين في مجال النساء والولادة طبيبًا لها، بل وأصرت على مستشفى متميز للغاية لذلك الغرض، من أن تغالبها دموعها وهي تدلف لغرفة الولادة ملقية نظرة الوداع التي ظنت أنها الأخيرة على زوجها وأمها وأختها الذين حضروا لدعمها في ذلك اليوم.

حاولت الممرضات تهدئتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، أتى الطبيب الأربعيني وهو يحادثها بكلمات طيبة، ويطلب منها أن تردد خلفه أدعية وأذكارًا لتهدأ روحها، استسلمت وأسلمت نفسها وروحها لله ليفعل بهما ما يشاء، ترى هل تغلق عينيها لتفتحها على وليدها أم على سقف قبرها، ترى هل ترى زوجها مرة أخرى؟؟ هل فاتها أن تقول له إنها تحبه بشدة، هل تدفنها والدتها أم تدفن هي والدتها؟ مَن سيرى عزاءَ مَن؟ هي أم أختها؟ تركت كل هذه الأسئلة وراء ظهرها والمخدِّر يسري كالبرق في جسدها وهي تردد أرقامًا وراء طبيب التخدير، كان آخر ما فاتها من حديث طبيب التخدير وهو يقول:

- هيَّا رددي معي من واحدٍ إلى عشرة.

- واحد، اثنان، ثلا...

أحست بها مثل ثانية واحدة أظلمت الدنيا وأضاءت، لتأتيها الأصوات والأضواء المختلفة، سمعت صوت الممرضة تقول لها في صوت حنون باسم:

- مبروك يا "ناهد".

رغم بقية من تأثير المخدر شعرت أنها واعية للحديث فأسرعت تقول في إنهاكٍ:

- ولكن أنا لست "ناهد".

بعد اثنين وعشرين عامًا

الفصل الثاني

(دعابة العمر)

دأبت "أماني" على ترديد هذه القصة على ابنها "محمد" طوال اثنين وعشرين عامًا وكأنها دعابة مضحكة، قالت له:

- تصور كيف أصابني القلق حينما سمعتها تقول مبروك يا "ناهد"، كنت قد رفضت أن أقوم بعملية الوضع في مركز الولادة واخترت المركز الطبي الجديد حتى لا يحدث اختلاط بينك وبين وليدٍ آخر ويحدث تبادل لا قدَّر الله، وأتت هذه العبارة لتزرع بذرة الخوف والشك في قلبي.

ملَّ "محمد" من تكرار القصة عليه رغم معرفته أن والدته تنسى أنها روتها كل مرة، هي ليست مملة كما تبدو ولكنها تدع ذاكرتها تخونها في القصص، ومع الوقت تعلم من والده أن يتجاوب معها وكأن القصة جديدة عليه، فسألها قائلاً:

- وكيف تأكدتِ من أنني أنا ابنك ولست ابن "ناهد"؟

- في البداية تشككت واستمر الأمر معي لعدة شهور قليلة قبل أن تتشكل ملامحك أمامي وتصبح نسخة طِبق الأصل من والدك، كل من رآك ظنك هو وأنت صغير، جدك، صديقاتي، كل الناس شهدوا بذلك، ويوم صار عمرك عامين تأكدت بشكلٍ لا يدع مجالاً للشك أنك هو.

- كيف؟ هل قمتِ بتحاليل طبية؟

- طبعًا لا ليس لهذه الدرجة، ولكني أغضبتك في أمرٍ ما فقمت بعمل تعبيرٍ بوجهك لا يفعله سوى والدك، مستحيل أن يكون هناك اثنان بنفس التعبير في العالم بأسره.

- هذا ليس شرطًا، أنت فقط أحببتني ليس إلا وأحببت أن أكون ابنك.

- ماذا تقصد؟

- لا شيء يا أمي، لا شيء.

كان الأب يستمع لهما في غير اكتراث وهو يقلب في صفحات كتاب بين يديه قبل أن يشعر برغبة في إنهاء حديثهما المزعج له فقال:

- أكدت لها مرارًا أني قد رأيتك منذ لحظة الولادة وكذلك رأيت حماة "ناهد" وأخا زوجها وبدا عليهما سمات الطيبة وحسن الخلق فلو حتى افترضنا أنه قد حدث تبديل فأنت في أيدٍ أمينة والحمد لله، أنت تفهم ما أقصده.. أقصد ستكون بخير أنت تفهمني.. المهم أنت ابننا الآن وبالتأكيد لستَ ابن "ناهد" إني أرى فيك نفسي في كل لحظة، تفعل نفس حركاتي، بك كل عيوبي ومميزاتي، حتى طريقة نومي، كل شيء بك هو أنا وكأنه استنساخ بشري.

كان الأب يتكلم و "محمد" يفكر، هل والده سعيد حقًّا بهذا التطابق، هل يشعر أي أب فعلاً بالسعادة بتطابق صفاته الخلقية والشخصية مع ابنه، هل تشعر الأم بالفرح لو تطابق شكلها وشخصها مع ابنتها مثلاً، أم إنهم يشعران بأن هذا التطابق ليس جيدًا أو إيجابيًّا؟؟

بالتأكيد لو كنتُ موهوبًا بالرياضة تتمنى من ابنك أن يأخذ نفس صفتك وموهبتك ولكن ماذا عن خوفك من العناكب، ماذا عن تلك

الوحمة السوداء الكبيرة في صدرك، ماذا عن نحافتك الزائدة، هل تتمنى من ابنك أن يكون شبيهًا لك في ذلك؟! بالطبع لا.

الأب نفسه كان يشكو من كسل ابنه الزائد قبل أن يقرأ في كتاب ما أن كسل الأبناء أمرٌ موروث من الآباء أنفسهم؛ فلم يعلق على ذلك الموضوع مرة أخرى، الولد سِرُّ أبيه دائمًا كما يقولون، "محمد" يُحِبُّ النوم كثيرًا مثل "حسام" أبيه، يحب الرسم ولا يبدع فيه، يحب القراءة ولكنه لا ينفق عليها وقتًا أو مالاً كافيًا، هو باختصار ابن أبيه في كل شيء ولكن في قرارة نفسه يشعر أن أباه غير راضٍ عن ذلك، حتى في صفاته الجسدية، والده يخبره أنه كان يتمنى لو ولد بشعر ناعم لأنه أفضل للشاب من الشعر المجعد ولكن الفتى أتى يحمل شعرًا مُجعَّدًا وتلاه أخوه الصغير في ذلك ليخيّبا توقعات الأب المنافية لعلم الوراثة.

والده دائمًا يتوقع منه الأفضل والأحسن ويضع سقف توقعات مرتفع جدًّا بالنسبة له، كان يتمنى منه أن يجيد عدة لغات قبل العاشرة، وأن يصبح بطلاً عالميًّا في الكونغ فو، وأن يجيد السباحة وكرة القدم، ويحترف الرسم.. باختصار كان يريده سوبرمان من كوكب كريبتون ولكنه نسي أنه بشر ولديه جينات بشرية بها من القوة مثل ما بها من الضعف.

هو يعرف أن فكرة الإنسان الخارق هذه مستحيلة، الجينات والظروف تغلب كل رغبةٍ وكُلَّ حُلمٍ، كما أن والده من أجلِ تحقيق هذه الفكرة الخيالية تحوَّل إلى مضخة مال فقط بدون توجيه.. ينفق هنا وهناك ولكنه لا يدعم ولا يشجع، وأسفاره الكثيرة بين بلدان العالم تعيقه عن متابعة ذلك الاستثمار البشري العظيم فكانت النتيجة بالطبع عاديةً، ليست بالخارقة للعادة.

حتى حينما يكون والده موجودًا بينهم، هو هناك بجسده فقط وليس بقلبه أو بعقله وجوارحه، يتكلم كثيرًا ولكن عيناه شاردتان، منذ صغره يسأله أن يلعب معهم فيقوم الأب متكاسلاً ليتظاهر بأنه يلعب لدقائق قليلة قبل أن يقول أنه قد تعب وأصابه الإرهاق ويجلس طلبًا للراحة حتى ملَّ منه "محمد" فلم يعد يطلبها منه.

بالتأكيد هو يشبه أباه، ولَكِنْ أبوه ليس بالأب المثالي الأسطوري الذي في مخيلة كل طفل وشاب، نعم هو يحبه ويشعر نحوه بمشاعر عظيمة ولكنه لا يستطيع أن يتخليه بأنه الصورة المثالية للأب.

انتزعه والده من شروده قائلاً:

- أين ذهب عقلك يا "محمد"؟

تراخى "محمد" في مقعده قليلاً قبل أن يقول:

- تخيلت للحظة لو أنني ابن "ناهد" كيف كان شكل حياتي سيكون.

صمت "حسام" و"أماني" عند هذه اللحظة وتبادلا نظراتٍ خاطفةً قبل أن تندفع "أماني" قائلةً في تحدٍّ:

- لمعلوماتك، لن تجد على هذه الأرض حضنًا أحن عليك منِّي.

تدخَّل "حسام" سائلاً ابنه:

- ألا تشعر بالفخر لأننا والداك، ألا تعجبك حياتك؟

- لا ليس الأمر هكذا ولكنه مجرد تساؤل، أنا أفخر بكما بالطبع، كما أنني أعرف أن حياتنا جيدة بشكلٍ كبيرٍ، نعم لسنا من علية القوم، ولكن بالتأكيد لسنا من سافلهم كذلك، كما أنني لو لم أكن ابنكما فلن يكون "مالك" أخي وهو رغم ما يفعله بي يعد صديقي قبل أن يكون أخي.

قبل أن يُكثِرا من الحديث، نهض وانصرف إلى غرفته وسط اندهاش وذهول والدته التي التفتت إلى والده قائلةً:

- "حسام"، اذهب لترى "محمد" ما به، يبدو غريبًا هذه الأيام؟

مطَّ "حسام" شفتيه وعقد ما بين حاجبيه وهو يقول:

- دعيه، لقد فهمت الأمر الآن، هو يمر بأزمة هوية فقط، سيجتاز الأمر مع الوقت، كلنا نمر بذلك من حينٍ لآخر.

- أنا لم أمر بذلك؟

- لأنك راضيةٌ تمامًا عن حياتك وتعيشينها بكل ما فيها، تضحكين وتبكين، تغضبين وترضين، ما تريدينه تفعلينه بدون تفكير، كما أنك لا يهمك المستقبل ولا تبكين على الماضي، أنتِ بلا عُقَدٍ أو مُركَّبات نقص مثلنا، لذا لن تأتيك أزمة هوية أبدًا، أنت يا حبي متناسقة وصادقة جدًّا مع نفسك.

سمع "محمد" من داخل غرفته كلامَ والده رغمًا عنه وتساءل في نفسه هل هو صادق فيما يقول.. هل يمر فعلاً بأزمة هوية؟ ولماذا؟ هو لا يشكو من نقصان أيِّ شيءٍ، يعيشان في شقة مريحة بالإسكندرية وهناك أخرى صغيرة بالقاهرة لوقت الحاجة، هناك حساب بنكي صغير للمستقبل، هو لتوّه أنهى الجامعة الألمانية بدرجة علمية جيدة للغاية ويستعد للعمل قريبًا، لديه أخ مُزعجٌ مشاكس اسمه "مالك" في الجامعة، ولكنه يحبه كثيرًا ولا يتصور حياته بدونه، أمه ذات شخصية قوية ولكنها عليه أرق من فقاعة الصابون، ووالده كذلك لا تغمض عينيه بدون توفير ما يرغب فيه له، إذًا مِن أين تأتي أزمة الهوية؟!

أمسكَ دفترًا من على مكتبه وخط كلمات بسيطة باللغة الإنجليزية:

Who am I?

قبل أن يترجمها تحتها بالعربية بخط أنيق

"مَن أنا؟"

هو يحب حياته بالطبع، نعم ليست كما يتخيلها في أحلام اليقظة، ولكنها جيدة في مجملها، سمع أن والديه قد مرَّا بأيامٍ أصعب في طفولتيهما وشبابيهما ولكنه لم يكترث لتلك القصص كثيرًا واعتبر ذلك مبالغات منهما من قبيل إشعاره بأن يُقدِّر النعمة التي يرتع فيها، كل الآباء والأمهات يرددون تلك النبرة وذات العبارات مهما اختلفت السنين.. أنا حينما كنت بسنك كنت كذا وكذا، وأنا في صغري لم أجد كذا وكذا.. نفس الأسطوانة المشروخة مع اختلاف الأزمان.

فلماذا يشعر بالضيق إذًا؟

ما الذي جرَّ عليه ذلك السؤال بعد حديث أمِّه الأخير عن "ناهد" وابنها رغم أنه سمع القصة عشرات المرات من قبل، لماذا مست القصة قلبه هذه المرة وحركت مكنون أفكار تحت الرماد داخله فصارت جذوة نار تحرق عقله وقلبه.

سمع من قبل أنَّ أباه مرَّ بأزمة منتصف العمر في الثلاثين من عمره، وخرج منها خاسرًا بدون أن يحدد هويته، فلماذا أتته الأزمة هو مبكرًا وهو في العشرين من عمره فقط ويتفتح وَرْدُ حياته حديثًا؟ هل عمره العقلي يوازي ابن الثلاثين؟ هو سافر مبكرًا وعاش تجارب مختلفة وحظي بتعليم متميز، ربما هذا هو السبب..

أم يكون هناك سببٌ آخر؟

كانت لديه صفحة باسمٍ مستعار وعليها أكثر من عشرة الآف متابع على موقع البينجو وهو بديل الفيس بوك الذي أصبح صيحةً قديمةً في ذلك الوقت، كتب على تلك الصفحة سؤالاً لمتابعيه:

إذا لم يكن والداك فُرِضَا عليك فمَن تختار ليكونا والديك؟

كتب السؤال وانتظر عدة ثوانٍ ليتلقى الإجابات.. لديه عشرة الآف متابع، وبالتأكيد سيحصل على إجابة ترشده لسبب الحالة التي هو فيها أو تطفئ ظمأ السؤال لديه..

بدأت الإجابات تتوالى، بَعضٌ منها حكيمٌ، وبعضها أحمق، وبعضها يثير الدهشة.

هناك من كتب أنه يتمنى أن يكون والده ألمانيًّا وأمه أيطالية، هذا شخص يرغب بالهروب من واقعه الكلي تمامًا، هناك من قالت أتمنى أن يكون والدي (ليوناردیو دي كابريو) ووالدتي (كيت وينسلت) هناك من اختار شخصيتين غادرا عالمنا منذ زمن بعيد، هناك من قالت (كنت أريد أن يكون أبي هو رسول الله وأمي هي السيدة مريم العذراء) مزج عجيب للدين بالخرافة العاطفية والرومانسية الساذجة، هناك من أجاب أنه يريد أن يكون ابنًا لكائنات فضائية أو حتى بلا والدين على الإطلاق.

كانت تلك الإجابات تُمثِّل هربًا من الواقع أو سخطًا على الوالدين، يعلم أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد تغيرت كثيرًا في غضون اثنين وعشرين عامًا من ثورة يناير وهو مواليد نفس شهر الثورة، فمرت البلاد بسنين عجاف حوَّلتها إلى فوضى عارمة، فما بين جنون بالأسعار إلى ركود في الأسواق تلاه كساد اقتصادي عظيم وتبعه اقتتال أهلي وفوضى مُجتمَعية مع هجرة داخلية لصفوة المجتمع والانعزال داخل مدنهم الخاصة وهجرة خارجية لمعظم الطبقة المتوسطة من مصر إلى كافة دول العالم بلا استثناء. كانت البلاد تعاني بمن تبقى فيها، وحلم كل إنسان بها هو الهروب من واقعه..

لكن رغم ذلك لاحظ أن أكثر الإجابات التي أعجبته والتي توقعها هي:

- سأختار أبي وأمي مرة أخرى.

نحو تسعين بالمائة من الإجابات كذلك، هل هو كاره لأبويه، لا بالطبع، إنه يذوب عشقًا بهما، وهو يميل لهذه الإجابة، ولكنه ما زال يسأل نفس السؤال، ماذا لو وُلِدَ في أسرة مختلفة ولوالدين مختلفين، أحدهما على الأقل.. ماذا كان سيحدث له ولشكل حياته؟

تخيل مثلًا لو أن والده ليس هو والده، ربما كان شخصًا آخر؛ ممثلاً مشهورًا مثلًا، أو رياضيًّا عالميًّا، ماذا عن رئيس جمهورية، أو حتى مَلك أو أمير، هناك ملايين التصورات هنا عن كيف كان شكله وملامحه وصفاته وحتى سيناريوهات حياته ستختلف.

ما بين لون عينين مختلفتين لشكل الشفاة مرورًا حتى بالطول والوزن، ماذا عن الجنسية، ربما كان ليولد فرنسيًّا أو إنجليزيًّا.. له صديق بالجامعة معه جنسية سويدية ويقول إنه يود أن يخدم يومًا ما بالجيش السويدي،كان يمكن أن يكون مثله.

أعياه التفكير في كم الخيارات التي لديه أو السيناريوهات المختلفة لو فقط لم يكن والده هو والده.

ماذا عن والدته، ماذا لو كانت امرأة أخرى؟ ماذا لو كانت مثلاً مطربة مشهورة أو عالمة فيزياء؟ ماذا لو كانت عازفة بيانو؟ ترى هل الأم الشامية أفضل من المصرية؟ كلهن يستخدمن الحذاء كوسيلة للعقاب فلا فرق بينهن، لكن ماذا لو كانت أمه كندية أو إسبانية؟

لو اختلفت أمه قليلاً أو تبدلت كيف كان ليكون شكله ومواصفاته، ربما أزرق العينين، ربما أشقر الشعر، هل كان ليصبح أكثر بياضًا.

عند هذا الخاطر وقف ليتأمل وجهه في المرآة، هو رياضي الجسد، ذو شعر مجعد، أبيض البشرة، يميل إلى التوسط في الطول وعيناه عسليتان، لا بأس به لو تبدَّل أيٌّ من ملامحه ولكن ماذا لو صارت ملامحه أسيوية مثلاً، مد أصابعه ليضغط على جانبي عينيه ويعديهما

إلى الوراء لتصبح مثل عيون الأسيويين الضيقة قبل أن يتوقف بعد أن شعر بسخف ما يفعله ويعود إلى مقعده مرة أخرى وهو يتساءل مجددًا..

لو اختلف الاثنان هل كان "مالك" ليكون أخاه، بالتأكيد سيتبدل ساعتها، ربما بأخت رقيقة تدعى (ملك) بدلاً من ذلك البلطجي الصغير الذي يقتسم معه كل شيء.

ابتسم عند ذلك الخاطر قبل أن يقطب جبينه في فزع وقد أخذته تساؤلاته إلى الضفة الأخرى من النهر حيث لا يرغب أحد أن يكون هناك.

لماذا يفترض أن الخيارات كانت لتكون لصالحه.

ربما لكانت ضده تمامًا.

ماذا لو كان والده المفترَض مصابًا بالسكر وانتقل له المرض وراثيًّا، ماذا لو كانت أمه راقصة شرقية تتنقل بين أحضان السكارى، ماذا لو ولد لأسرة من قاع المجتمع تسكن في غياهب النسيان، ربما (ملك) التي يتمناها هذه كانت لتكون فتاة سيئة السمعة..

هو لن يعرف قط

هذه هي حياته وهذه هي عائلته

ولكن الفضول يقتله

يحاول تصوُّر كيف كان سيكون شكل حياته

وهل كان سيكون سعيدًا بها أم شقيًّا

تلك الأسئلة الغيبية التي تحيّره، والتي يظن بدرجات متفاوتة تعذب كل الآخرين، ماذا لو لم أركب القطار؟ ماذا لو لم أرفض السفر؟ ماذا لو سمعت كلام والدي وغيَّرت محور دراستي؟ ماذا لو لم أصادق (باسم علوان)؟ ماذا يحدث لو لم أقابل (نهى)؟

ماذا لو؟

ماذا لو؟

ماذا لو؟

ليس هناك من سجلاتٍ أكاشية للمستقبل ولا بلورة سحرية تخبرك بذلك، ليس هناك فقط سوى أحلام يقظة تستفيق منها على واقعٍ ثابتٍ لا يتغير إلا بمقدار ما تحدثه أنت من تغيير.

ولكنه تساءل مرة أخرى:

ترى يا "ناهد" لو كنتِ أمي فعلاً، كيف كان ليكون شكل حياتك؟

شاهد من قبل فيلمًا اسمه (ليون) مأخوذًا عن قصة حقيقية عن فتى هندي ضاع من والدته وهو صغير وتاه لفترة ما بين مدن الهند القاسية قبل أن تتبناه عائلة أسترالية، عاش حياة هانئة ولكنه ظل يتساءل عن أمه وعائلته مرة أخرى قبل أن يكبر ويتخذ قرارًا مستقلًا بالبحث عن ذاته وهويته، بالبحث عن عائلته وبعد بحث مضني وجدها واطمأنت نفسه بها.

الفرق بينه وبين (ليون) أن ذلك الأخير كان يعلم أن عائلته الأسترالية ليست هي عائلته الحقيقية، وأن لديه عائلة ما في مكان آخر من العالم، أما هو فالعكس تمامًا يعرف أن هذه عائلته الحقيقية وأن أي عائلة أخرى ستكون وهمية ولكنه يريد أن يعرف كيف كان سيكون شكل حياته.

قرأ يومًا ما عبارة "لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع" ولكن الأمر بالنسبة له ليس غيبًا، بالتأكيد يمكنه الوصول لـ "ناهد" وسيري كيف صار ابنها ويقارن بين حياته وحياة ذلك الأخير، هو في مثل عمره الآن، وُلِدَا في نفس الساعة ونفس اليوم ولكن المصائر ليست واحدة بالتأكيد.

مجرد لقاء واحد سيجعله يشعر بالراحة

عند ذلك انتهى من تأملاته وهو يكتب عبارة أخرى في الدفتر ويخرج إلى والده ووالدته، وجد والدته وقد استكانت بظهرها على صدر والده على الأريكة الواسعة ووالده يعانقها من الخلف وهما يتبادلان المزاح مع بعضهما البعض، استحى منهما قبل أن يشعر أنهما هما مَن لا بُدَّ أن يستحيا منه، طوال عشرين عامًا لا يكفان عن تلك التصرفات المراهقة فصاح فيهما:

- أبي، أمي، لقد قررتُ قرارًا..

اعتدل أبوه وهو ينظر له وكأنما ينتظر قنبلة على وشك الانفجار بينما تبسمت والدته وهي تقول:

- خيرًا يا (محمد).

التقط نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- سأذهب للبحث عن (ناهد).

الفصل الثالث

(بداية متعسرة)

تقبلت "أماني" الخبر بشكل غير سار ولكنه كان متوقعًا منها، صرخت في "محمد" عن أي جنون يقوده! وهل به مس من شيطان ما، حولت الموضوع إلى شكلٍ شخصيٍ وسألته مرارًا ما الذي لا يعجبه فيها، ما الذي ساءه في أكله وشرابه وملبسه ونمط حياته؟ وعددت له النعم التي يحيا فيها وكيف ضحَّيا هي ووالده بأحلامهما في سبيله وفي سبيل أخيه.

في النقطة الأخيرة لم تكن محقةً، هو لا يشعر أن والده ضحَّى من أجله .. نعم أنفقَ عليه بكل ما أوتي من سعة ولكنها نفقات مال فقط، لم يهبه وقتًا ولم يشاركه لحظات فرحه، كان مشغولاً بصنع مجده الشخصي وها هو بعد أكثر من عشرين عامًا قضاها والدًا له، لا يذكر أنهما قد تشاركا الكثير من الحديث أو الذكريات.

انتهى الأب بعد عشرين عامًا بأحلام محققة، رصيد معنوي ومادي يدعو للطمأنينة، مع خطط تقاعد مريحة، والده نفسه أخبره أنه لا يقتنع بنظرية التضحية المفرطة لأجل الآخرين، قال له كل ما أجمعه من مال سأحاسب عليه وحدي وليس ورثتي، فلماذا أفني حياتي لأجل تحقيق أحلام الآخرين، ماذا عن أحلامي الشخصية، لماذا على ابني أن يكون ابنًا مشهورًا لأبٍ مغمورٍ، أو ابنًا قويًّا لأبٍ ضعيفٍ، أو ابنًا غنيًّا لأبٍ فقيرٍ، لماذا لا يحقق الاثنان أحلامهما في نفس الوقت.

لهذا السبب لم يمنع "حسام" زوجته "أماني" من أن يكون لها أحلامها الخاصة، شجعها في دراسات علمية إضافية، حفزها على بدء مشروعها الخاص، لم يقنن تحركاتها واحتفل معها بلحظات انتصارها حينما تحقق شيئًا ما مميزًا، حتى لا يأتي اليوم الذي تقول له فيه أو تشعره بأنها ضحت بحياتها كلها من أجله هو وأولاده فقط

خرج "مالك" من غرفته وهو يفرك عينيه متسائلاً:

- ما الذي يحدث؟

كان "مالك" يصغر "محمد" بأربع سنوات تقريبًا وهو بالسنة الأولى بالجامعة الفرنسية، يختلف عنه اختلافًا كليًا في الشكل والطباع ويتشاجران كثيرًا، ولكنهما يكنان لبعضهما حُبًا عميقًا.

أسرعت "أماني" تقول:

- تعال واسمع ما يقوله أخوك، يبحث عن أم بديلة عني.

فتح "مالك" عينيه عن آخرهما وهو ينظر لـ "محمد" في دهشة قبل أن يعتدل فجأة وهو يقول:

- حسنًا يا "محمد" لو لم تنتقِ بعد؛ فمواصفاتي تعلمها جيدًا أُم غير عصبية، يفضل شقراء وتكون نحيفة، هل تسمع تكون نحيفة.

تفادى وسادة الأريكة التي قذفته بها أمه في خفة وهو يختفي خلف أخيه وأمه تقول:

- حتى أنت يا "مالك"؟ يا خسارة تربيتي لكم.

فاجأتها ضحكات "حسام" أتية من خلفها قبل أن يقف وهو يقول:

- اتركيه يبحث عنها يا "أماني" لن تندمي على ذلك.

نظرت له في غير تصديق وهي تقول:

- هل توافقه الرأي؟

- طبعًا، دعيه يعرف إجابة السؤال الذي يحيره، ربما الإجابة ستكون لصالحك.

- بالتأكيد ستكون لصالحي، لن يجد أمًّا أعظم منِّي.

صمت الجميع على أثر موافقتها الضمنية على رحلة البحث و "محمد" يقترب من أمه التي اتخذت جانبًا وهي تتحاشى النظر له لينحني مُقبلًا رأسها وهي تبعده عنها في نفور قائلة:

- اذهب إلى أمك الأخرى، لعلها أحسن منِّي.

كان يعلم أنها متضايقة للغاية ولكنه سترضى عنه بعد بضعة أيام كعادتها دائمًا، هي على الأقل أهون عليه من غضب أبيه؛ فذلك الأخير طفل كبير في غضبه، يغضب لمدد غير معلومة ويحتاج وسطاء سلام للصلح، هي ترد على المواقف بالكلام لَكِنَّ أباه يرد بالصمت والتجاهل.

لقد قرر المضي قدمًا في بحثه وحينما ينتهي منها سيجد طريقة لاستعادة رضا أمه عنه بالتأكيد.

***

في اليوم التالي أسرع "محمد" ينزل مبكرًا من المنزل ويتجه نحو سيارته في سرعة، رأى "مالك" يهرع خلفه أيضًا متعجلاً على غير عادته فقال له:

- لماذا استيقظت مبكرا، إلى أين تذهب؟

- سآتي معك لأرى أمك البديلة.

- ولماذا؟ هذا شأني وحدي.

- ليس شأنك وحدك، ثانيًا هي فرصة لأقود السيارة، تعلم أن أباك يمنعني عن سيارته.

- هو يخاف عليك ليس إلا، أنت قيادتك متهورة وهو لا يريد مشاكل مع أحد.

- إذًا ستدعني أقود السيارة أم ماذا؟

- لا بالطبع.

- حسنًا، سآتي معك للمشاهدة فقط حتى أعرف إلى أين يقود ذلك الأمر.

- هل تعلم إلى أين أنا ذاهب أصلاً؟

- طبعًا، ستذهب للمركز الطبي الجديد.

- يا ابن العبقرية، كيف عرفت؟

- عيب عليك، أنت تهين ذكائي، يا حبيبي هناك عقل هنا وليس ثمرة موز.

تحرك "محمد" بالسيارة دون أن يتبادل أي عبارة أخرى مع "مالك" طوال الطريق قبل أن يبادره "مالك" سائلاً:

- هل أنت موقن أن رحلتك في البحث هذه ستقودك إلى ما يسرك رؤيته؟

- المسألة ليست ما يسرني أو يسوءني، أنا لست ذاهبًا لمشاهدة فيلم، المسألة سؤال أبحث له عن إجابة، ولكن لماذا تسأل ذلك السؤال؟

- هناك فيلم قديم اسمه (أحلى الأوقات) كان فيه ممثلة اسمها (حنان ترك) على ما أذكر ذهبت تبحث عن والدها ولكنها لما رأته أنكرته من سلوكه، لا تدري أي أمٍّ بديلة يخبئ لك القدر، أو أي أب بديل.

- قلت لك لا أبحث عن أم بديلة كما تدَّعي أمك، أنا أبحث عن شيءٍ آخر.

قال له "مالك" مندهشًا:

- عن ماذا تبحث إذًا؟

- عن حقيقة نفسي، استمع لي جيدا، كان هناك صديقا لي في الجامعة، كان متعثرا جدا، تصادقنا في السنة الأولي ولكنه ظل يرسب وحاليا هو بالسنة الثانية بينما أنهيت أنا دراستي، ولكننا ظللنا

أصدقاء حميمين، سألته ذات مرة لماذا لا يلتفت لحاله ويصلح من نفسه؟ أتعرف بماذا أجابني؟ قال لي أنت مختلف، لقد منحت عائلة جيدة تهتم بك، أما أنا عائلتي سيئة ومن هنا بدأ هذا السؤال يدور ببالي، هل أنا ما أنا عليه لكون هذه شخصيتي، أم أنني كنت سأكون مختلفًا لو نشأت مثلاً في عائلة مختلفة، كان السؤال مثل البذرة، وكان يمكن أن يظل هكذا إلى الأبد ولكن أمك لكونها تُردِّد نفس القصة كل فترة أحيَت هذه البذرة لتصبح نبتة قبل أن تنمو شجرة الفضول داخلي، ألا تأتيك هذه الأسئلة الوجودية أحيانًا؟

حار "مالك" جوابًا عليه فاكتفى بالصمت وهو يقول له:

- ها هو المركز الطبي هناك، أرجو أن نجد الإجابة.

كان المركز عبارة عن مبنى من ستة طوابق، لا يبدو حديثًا بل عمره على الأقل ثلاثون عامًا، ولكن أصحاب المركز أصروا على الاحتفاظ بكلمة الجديد ضمن لافتته لغرض دعائي بحت، ترجل الاثنان من السيارة وهما يدلفان إلى داخل المركز، كان مزدحمًا للغاية، تعجب "مالك" في قرارة نفسه، أكُلُّ تلك النساء يلدن في مكان واحد ولكنه عرف فيما بعد أن المستشفى ليست مخصصة للولادة فقط بل هي مستشفى شامل واضطرا إلى الانتظار قليلاً حتى وصلا إلى مكتب الاستقبال الذي جلست خلفه فتاة حسناء في زي رسمي أنيق وعلى شفتيها ابتسامة مصطنعة تدربت عليها طويلاً وهي تقول:

- مرحبًا، كيف يمكنني أن أخدمكم؟

تنحنح "محمد" قليلًا وهو لا يدري كيف يبدأ قبل أن يقول :

- لقد ولدت في هذا المركز منذ نحو اثنين وعشرين عامًا وأبحث عن معلومة معينة.

صمتت للحظة وقد بوغتت بالمقدمة قبل أن تسأل:

- أيُّ نوع من المعلومات؟

- أريد أن أعرف في يوم ولادتي، كم امراة وُلِدت في ذلك اليوم؟ وما هي أسماؤهن؟

نظرت الفتاة له في دهشة قبل أن تميل نحوه قائلة:

- هذا مستحيل، أولاً هذه معلومات خاصة وليست للعامة، ثانيًا تتحدث عن شيء منذ عشرين عامًا، نحمد الله أن المبنى لا زال بحاله، لا أظن أنه هناك سجلاتٍ متبقية لتلك الفترة.

أسقط في يد "محمد" وهو يطرق برأسه ويغمغم بكلمات شكر مقتضبة قبل أن يهم بالمغادرة، ولكن "مالك" أمسك بيده قائلًا:

- مهلاً يا بطل، من أول الرحلة ستنسحب؟ انتظر

اقترب "مالك" من الفتاة وهو يقول لها:

- صباح الفل، أليس هناك من (أركايف) هنا؟

- ماذا تعني؟

انتبه "مالك" أنه قد استخدم النطق الصحيح للكلمة مع تداول النطق الخطأ بين عموم المصريين فعاد يقول مصححًا:

- أقصد هل هناك من أرشيف؟

- نعم هناك أرشيف، بالطابق الرابع، آخر غرفة على اليمين.

- شكرا لك يا قمر.

قالها وهو يدعو "محمد" معه للصعود فتبعه ذلك الأخير وهو يتساءل ما الذي يخطط له أخوه، سار الاثنان نحو الأرشيف، كان غرفة صغيرة مكتظة بالأوراق وقد أغلقت بقفل حديدي، نظر "مالك" خلفه قبل أن يشير لإحدى الممرضات السمينات التي حضرت مسرعة وهو يقول له :

- صباح الفل، عندي طلب صغير في خدمة لي.

قالت له وهي تكشف عن ابتسامة متملقة وتضع يديها في جيب معطفها:

- تفضل..

- أخي هذا وُلِدَ في هذه المستشفى منذ عشرين عامًا، بالتحديد يوم الثاني عشر من يناير سنة 2011 وهو يود أن يعرف مَن الآخرين الذين وُلِدوا في ذلك اليوم وأسماء أمهاتهم وعنوانيهم.

قالت له في دهشة :

- لماذا؟

- يريد أن ينشئ جمعية خيرية اسمها جمعية الثاني عشر من يناير، فيها كل من وُلِدَ في ذلك الشهر.

أعقب كلمته بأن أخرج ورقة بمائة جنيه دسَّها في جيب معطفها وهو يقول:

- وهذه لأجل تعبك ومجهودك معنا.

لم تبدُ الممرضة مقتنعة بالمائة جنيه ناهيك عن الفكرة نفسها التي تخص الجمعية ولكنها قالت:

- حسنًا سأذهب لأحضر عم (مرتضى) مسئول الأرشيف، ولكن لا تظلا هنا، اجلسا في استراحة الاستقبال وأنا سأحضر لكما المطلوب.

غادر الاثنان وجلسا في منطقة الاستقبال حسبما طُلِبَ منهما، كان "محمد" يشعر بالتوتر بشدة وهو ينقر بقدميه على الأرض قبل أن يقف ليسير رائحًا غاديًا في حركات عشوائية ويطالع صور الأطفال المنتشرة على جدران المركز الطبي.

بينما "مالك" أخذ يراقب أخاه في إشفاقٍ، هو يختلف عنه في كل شيء وكأن البطن التي حملتهما ليست واحدةً، هو قوي البنيان، مُقبِلٌ على الحياة، لا يخشى المغامرة، و "محمد" على النقيض، ضعيف البنيان، لا يجرب الأشياء الجديدة ويخشى المغامرة بشدة.

مرت نصف ساعة قبل أن تظهر الممرضة وهي تنظر حولها في قلقٍ وكأنها ستعطيهما ملفات مخابراتية سرية تخص الأمن القومي ثم أخرجت ورقة من جيبها قائلة:

- لم أستطع إحضار أسماء المواليد، ولكن هذه هي أسماء الأمهات والعناوين التي سجلوها في ذلك الوقت.

أخذ "محمد" الورقة ووضعها في جيبه دون أن ينظر لها قبل أن يشكرها ويغادر ثم اتخذ موقعه خلف عجلة القيادة بالسيارة قبل أن يتوقف للحظة وهو يخرج الورقة دون أن يجرؤ على فتحها، فهزه "مالك" قائلًا:

- نعم، ما الذي تنتظره، أنت لن تفتح طلسمًا سحريًّا، هذا كشف أسماء، ما الذي يقلقك؟

- أتعرف أن اسم والدتك سيكون مكتوبًا، سأتذكر كم كانت متضايقة منّي حينما ذهبت في بحثي.

- نعم، يمكننا ساعتها أن نبكي قليلاً ثم نكمل حياتنا، هيَّا بنا لا تضيع الإثارة دعنا نرى.

فتح "محمد" الورقة وهو ينظر لها مطولاً قبل أن يرتفع حاجباه في دهشةٍ وهو يقول:

- غير معقول!

- ماذا؟

ناوله "محمد" الورقة فتطلع لها "مالك" وهو يقرأها بصوت عالٍ:

- (أسماء على مصطفى). (أماني على حجازي). (ناهد عبد اللطيف حسين) . (ناهد عوض..)

صمت "مالك" وهو يطوي الورقة قائلاً:

- لم نتوقع هذا، هناك ثلاثة باسمِ "ناهد" في القائمة، هذا سيجعل البحث عنهن رحلة ليست بالبسيطة، هل أنت مستعد لذلك، أم نرجع لحياتنا الطبيعية وينتهي الأمر؟

أخذ "محمد" يفكر قليلاً وهو يريح رأسه على مسند مقعده قبل أن يقول:

- لا بُدَّ من المضي قدمًا، ولكن ليس وأنت معي، أنت دراستك بدأت حديثًا ولا أريد أن ألهيك، سأعيدك الآن إلى المنزل وأكمل في طريقي لوحدي.

صاح "مالك" وهو يضرب بيده على صدره مثل النساء الشعبيات قائلاً:

- ستبيعني في منتصف الفيلم يا (مرزوق) وأنا الذي ضحيت بالإفطار اليوم حتى ألحق بك.

لم يجبه "محمد" وهو يقود السيارة عائدًا للمنزل قبل أن يتوقف أسفله وهو يقول له:

- هيَّا انزل الآن، ولا تخبرك والدتك أي شيء.

- والله بعد نذالتك هذه لا أضمن لساني، سأعترف عند أول صفعة أو أول قُبلة أيهما أقرب.

- إياك ثم إياك وإلا لن أخبرك ما الذي رأيته.

ترجل "مالك" من السيارة وهو يشعر بالضيق، قبل أن ينطلق "محمد" بها في سرعة، وهو يحارب وحوش أفكار خرجت من عرينها لتتصارع في عقله دفعة واحدة.

ترى إلى أين يقودك عقلك يا ابن "أماني"، الدعابة التي عشتها لأكثر من عشرين عامًا صارت واقعًا يتجسد أمامك، يمكنك أن ترى صورًا أخرى لحياتك في غضون يومٍ مِنَ الآن وليس صورة واحدة كما توقعت بل ثلاث صور مختلفة.

في قرارة نفسه شعر بخاطر يلح عليه أن يتراجع ثم يعود إلى أمه يسترضيها كما أغضبها ولكنه شعر أنه عليه ألا يضيع الفرصة، ليس من السهل كل يوم أن تخوض تجربة تكشف لك لمحات من مستقبل محتمل أو أن ترى حياة كنت ستعيشها لو أخطأت ممرضة في عملها مثلاً، سيجب عن سؤال (ماذا لو) الشهير الذي أرهقه في مادة التاريخ..

ماذا لو انتصر المغول في معركة عين جالوت؟

ماذا لو لم ينتصر الحلفاء في الحرب؟

ماذا لو لم أكن ابن "حسام" و"أماني"؟

قرأ العنوان الأول وهو يقول لنفسه في صرامة:

- توكلنا على الله.

حينما عاد "مالك" إلى المنزل وجد والدته تنتظره على الباب وهي تقول له:

- أين أخوك؟

- لا أعرف؟

- كيف لا تعرف، لقد رأيتك تهبط من سيارته منذ قليل؟

- نعم هبطت منها وذهب إلى مكان لا أعرفه، بسيطة يا أمي.

سمع صوت والده يأتي من الداخل وهو يقول:

- اتركيه يا "أماني".

أسرعت "أماني" إلى مصدر صوت زوجها الذي صدر من الحمَّام وهي تراه يحلق لحيته في اهتمام قائلة له:

- ألا يهينك الأمر؟

- أي أمر؟

- أن ابنك ذهب يبحث عن حياة فيها أب آخر غيرك؟

- من قال إنه يبحث عن أب آخر غيري أو أم بديلة لك، هو يبحث عن نفسه كما قلت لك سابقًا.

- لا زلت لا أفهم، ما الذي يضايقه في نفسه وحياته، شاب وسيم .. ميسور الحال.. ذو تعليم متميز..غير محروم من شيءٍ.

- هي أسئلة لذوي الفكر ولا يرتاحون حتى يجيبوا عنها، نفس السؤال الذي سأله (بوذا) لنفسه حينما جلس تحت الشجرة، ونفس السؤال الذي سأله (آدم) لنفسه حينما أكل من ثمرتها، الكل يبحث عن المعرفة الخفية سواء كانت ضارة أم نافعة.

- لم أقتنع بذلك.

- ألم تسألي نفسك من قبل كيف كان ليكون شكل حياتك وأطفالك لو لم تتزوجيني؟

- أبدًا، لم أتخيل نفسي قَط مع رجل غيرك ولا مع أولاد إلا منك، ولا حتى للحظة واحدة.

نظر لها بهدوء قبل أن يرد قائلاً:

- حسنًا.

أسرعت تسأله:

- ماذا عنك أنت؟

- ماذا عني؟

- هل تخيلت حياتك من دوني؟

- .....

- تكلم، لماذا لا تجيب؟

- أفضِّل عدم الرد.

- إذًا تخيلت حياتك مع أخريات بالتأكيد؟

- لا لم أفعل.

- إذًا لماذا لم تقلها؟

- لأنني تخيلت حياتي لو استمررت أعزبَ، حياة بدون نساء على الإطلاق.

- للدرجة هذه لا تعجبك حياتك وأنا بها!

- يا حبي لا تفهميني خطأ، كل الرجال بلا استثناء يتخيلون ولو للحظات حياتهم بدون نساء، بالذات الذين يعملون بجدية شديدة ولديهم طموحات عظيمة، حتى إنهم يتخيلون حياتهم بدون أطفال، بالتأكيد تعلمين مدى حبي لأطفالي، ومع ذلك أحيانًا أتخيل ماذا لو تأخروا قليلاً في الحضور، لقد تناقشنا في هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا من قبل.

زفرت في يأسٍ، فمسح وجهه بالماء وهو يقترب منها ليحتضنها قائلاً:

- أنت تعلمين جيدًا، أنتِ منّي بمثابة القلب من الجسد، لو توقفت للحظة عن التواجد في حياتي لمُتّ فورًا.

لانت ملامحها وهي تستكين لحضنه قائلة:

- بعد الشر عليك، بالمناسبة إلى أين أنت ذاهب؟

- لدي مهمة عمل بالقاهرة، وسأعود غدًا صباحًا.

- لم تخبرني!

- أنتِ لم تسأليني، كما أنك كنت مهمومة ومنشغلة بموضوع ابنك.

صمتت للحظة وهي تحادث نفسها:

- ابني، يا ترى أين هو الآن؟

وعاد صدى السؤال لديها بلا إجابة.

الفصل الرابع

(ليتها لم تكن ناهد)

اختار "محمد" الوجهة الأقرب له في الوصول إليها، لم يكن يتوقع الكثير من الأمور السيئة في مستوى الحياة الذي يتصوره، المركز الطبي الذي وُلِد به لم يكن قليل التكاليف في حينها وهذا معناه أنه أيًا كانت أسرته التي يحتمل أن تكون؛ فهي أسرة مستورة إن لم تكن ميسورة الحال.

هو سيظل من الطبقة الوسطى أيًا كانت شخصية "ناهد" المنتظرة، تلك الطبقة التي تختفي وتظهر في المجتمع بين حينٍ وآخر، طبقة الفقراء الذين يظهرون العفاف، تلك الطبقة التي تمتحن فوق الأرض وليس تحت الأرض، يعرف أنه وأخوه كانا يتبادلان الملابس فيما بينهما لعدم استطاعة الأسرة توفير ملابس جديدة كل عامٍ، تشاركا نفس السرير لسنواتٍ قبل أن يستقلا في أسرة مختلفة ثم غرف مختلفة بعد فترة، كان من أسرة تحتفظ بالدواء القديم في الثلاجة عسى أن تعاود استخدامه مع مريض جديد توفيرًا لكشف الطبيب، من الأُسَر التي تعرف أن هناك مواعيد معينة للخروج أو لتناول الفاكهة أو حتى لزيارة اللحوم للثلاجة، من أسرة عرفت السيارة متأخرًا وتشكو من غلاء أسعار الوقود باستمرار، أسرة تضطر الأم فيها للعمل لمساعدة زوجتها على البقاء صامدًا وليس لأجل تسلية وقت الفراغ، هو من الأُسَر التي تتقدم باستمرار حتى تظل في نفس المكان

وكأنها تستخدم درجًا كهربائيًّا هابطًا باستمرار إلى الطبقات الدنيا وسط موجات الغلاء.

هي الطبقة الضعيفة المسكينة التي لا هي تعيش بفوضى قوانين الطبقة الفقيرة ولا ببطش قوانين الطبقة الغني،ة ولكنها تختلف عنهما في أن أسرها أكثر تماسُكًا وأفضل خُلُقًا وتنظيمًا.

هو بالتأكيد سيكون أحد أفراد تلك الأسر، كان العنوان في (سيدي بشر) مكان قريب ويعرفه جيدًا، ليس بالسيء كعنوان له، سار بسيارته قبل أن يترجل منها ويكمل الطريق مشيا لأن الشارع كان ضيقًا للغاية.

ما إن وصل إلى البناية حتى وجد بنايةً حديثة للغاية معروضة للبيع في ذلك المكان، هذا ما كان يخشاه، عشرون عامًا تغير الكثير، لا يظن أن ساكني هذه البناية هم أنفسهم السكان القدامى، ربما رحلوا إلى مكان آخر، همَّ بالعودة ولكنه تذكَّر كلام أخيه "مالك" عن الاستسلام والهروب فاقترب يسأل حارس العقار قائلًا:

- السلام عليكم، هل هذه البناية جديدة؟

- نعم يا بك، هل تبحث عن شقة، أسعارنا ممتازة ومساحاتها مناسبة.

- لا شكرًا، ولكن ما الذي كان مكانها؟

- بيت قديم من أربعة طوابق، تم هدمه منذ عامين وبنوا مكانه هذه البناية، ولكن لماذا تسأل؟

- والله، أبحث عن أحد قاطني هذا البيت، هل تعرف أسماءهم أو عنوانهم الحالية؟

- لا يا بك، أنا جديد في المنطقة ولكن يمكنك أن تسأل ذلك الشيخ هناك، هو يملك محل البقالة هذا منذ عشر سنوات وبالتأكيد سيعرف من كان يقطن هنا وأين ذهبوا.

تحرك "محمد" إلى الرجل الأشيب الذي جلس في محله مشغول بترتيب بضاعته في شكل أنيق، ألقى عليه التحية فجاوبه الرجل بمثلها قبل أن يبادره "محمد" قائلاً:

- من فضلك، هل تعرف سكان البيت القديم محل هذه البناية الحديثة؟

- طبعًا أعرفهم جميعًا، لقد كانوا زبائني لسنوات عديدة.

- هل تعرف مكانهم الآن؟

- ليس بالضبط، كان هناك ثماني شقق في ذلك البيت، هناك الأخوان (صفوت وأحمد بسيوني) وهما قد اشتريا شقتين بنفس البناية الحديثة وسيسكنان فيها قريبًا، هناك (أم مجدي) وهذه توفت منذ سنوات، هناك شقة محامٍ ولم تكن للسكنى، كان هناك خمس أُسَر أخرى لا يحضرني أسماؤهم جميعًا الآن وإن كنت أعرف أشكالهم.

شعر "محمد" أنه يبحث عن إبرة في حظيرة قش قبل أن يقول:

- من الواضح أن إجابتي التي أبحث عنها ليست لديك.

- عما تبحث بالضبط؟

- هناك زوجة لأحد هؤلاء أو ربما ابنة، كان هذا عنوانها منذ عشرين عامًا، أبحث عنها.

- يا الله، عشرين عامًا يا بني، لماذا تبحث عنها الآن، هل تقصد خيرًا؟

- خيرًا طبعًا يا عمي، هو موضوع مهم ولكن ربما لا تقدر على مساعدتي به.

- ما اسمها؟ هل لي أن أعرف؟

- (ناهد عوض خليل)

- ابنة الحاج (عوض خليل) طبعًا أعرفها.

ابتهج "محمد" وهو يقول:

- هل تعرف أين هي الآن؟

- بالطبع، انتقلت مع زوجها إلى السكنى في (باكوس) هل تعرف شارع سينما ليلى، اسمه شارع الثورة حاليًا، ستجدهم هناك على تقاطع الشارع مع (جليم) اسأل عن زوجها لأنه لا أظن أحدهم سيعرفها بالاسم هناك، اسمه (إسماعيل منصور). هو تاجر أدوات صحية معروف.

شكره (محمد) بشدة وهو يقول له:

- شكرًا لقد ساعدتني كثيرًا.

خرج "محمد" من عنده وهو غير متحمس قليلاً للذهاب إلى (باكوس) فقد كانت أقل رقيًا قليلًا من (سيدي بشر) وتدهورت حالتها كثيرًا في الأعوام القليلة الماضية مع ازدياد ازدحامها وتدهوُر أخلاق ساكنيها، ولكنه قدَّر أنه ربما سكنوا قريبًا من (جليم) وهي منطقة جيدة بلا شك، فلا اختلاف كبير، كما أنه لا يكترث لما سوف يراه طالما أنه سيستشف منه مستقبله المحتمل، إذا كان قدره أنه سيكون من سكان (باكوس) فلتكن مشيئة الله، هو لا يزدري المكان ولا ساكنيه، فالناس بأخلاقهم أينما تواجدوا ولكنه سمع عن انتشار المظاهر الإجرامية هناك خصوصًا بعد ثورة الجياع الأخيرة التي سيطرت عليها الدولة بصعوبة.

وصل إلى المكان بعد نصف ساعة، ترجل من سيارته وسأل عدة أشخاص لم يهديه أحدهم لمحل إقامة (إسماعيل منصور) قبل أن يسأل على أقرب مقهى للمكان ويسأل نادل المقهى نفسه الذي أسرع يقول له بلغة الخبير:

- طبعًا، (إسماعيل منصور) أعرفه يسكن في الشارع الذي وراءنا مباشرةً، أول بناية على اليسار.

شكره (محمد) وهو يرى أن مهمته يسيرة للغاية، إلى الآن لم يضيع خيطًا في الوصول إلى "ناهد" الأولى، خرج من المقهى وهو يتوجه إلى المكان الذي دلَّه عليه النادل.

ما إن دخل "محمد" إلى الشارع الذي به البناية حتى تراجع مصعوقًا، كان هناك صياح وصراخ مرتفع وسط عويل نساء من الشرفات، هناك بضعة شباب في سن المراهقة والشباب يتشاجرون بالسيوف، وقد خلع معظمهم جل ثيابه ليبقوا بالملابس الداخلية الفوقية فقط، هناك دم خفيف على ثوب أحدهم ولكن لا يبدو أنه هناك إصابات عميقة.

سمع كثيرًا عن مشاجرات الشارع هذه ورأى بعضها رأي العين من بعيد، يعرف أنها كلها استعراضية ليس إلا ونادرًا ما تُسفِر عن قتلى أو مصابين حتى يتجنبوا تدخل الشرطة فيما بينهم وقبضتها لا ترحم بريئًا أو مُدَانًا، ولكن نتيجة للفوضى بالبلاد والانفلات الأمني صارت تتكرر بشكلٍ كبيرٍ بين حين وآخر ولم يسلم منها حتى الأحياء الراقية.

شعر أن الجو ينذره بالانسحاب، آخر ما يمكن أن يتورط فيه هو السير وسط مشاجرة بالسيوف في حي شعبي، ولكنه قبل أن يهم بالانصراف رأى النساء بإحدى الشرفات يلقين بالأطباق وأكياس المياه البلاستيكية على أحد الفريقين وسط سباب بذيء لينصرف ذلك الفريق وهو يرد بشتائم أقبح متوعدًا بالعودة.

هدأ الشارع قليلاً فاقترب من أحد الرجال والذي بدا من أهل الشارع يجلس أمام محل لصنع نسخ المفاتيح وهو يسأله بقلق:

- أبحث عن شقة (إسماعيل منصور).

أشار الرجل إلى الشقة التي ألقت منها النساء الأطباق والأكياس، هل يعقل أن تكون السيدة "ناهد" إحدى هؤلاء؟ عليه الرحيل إذًا وبدون انتظار؛ فلا يتصور أنه كان يمكن أين يعيش هذه الحياة

الفوضوية القاسية ولكن فضوله غلبه ليعرف أكثر فشكر الرجل وانطلق صاعدًا نحو الشقة.

كان المصعد معطلاً كالمعتاد فاستعمل الدرج وهو يسأل نفسه ماذا سيفعل وكيف سيقدم نفسه، الأمور لا تبدو على ما يرام، ربما عليه المجيء في وقتٍ آخر، ماذا لو زجروه ونهروه؟ ماذا لو أساءت له المرأة أو ابنها؟

همَّ بالتراجع ولكنه وجد أنه قد وصل فعلاً، كان باب الشقة مفتوحًا وأصوات نسوة كثيرات يأتي من الداخل، مد يده في تردد ودق جرس الباب ينتظر مجيء إحداهن.

أتت امرأة ممتلئة الجسد، ترتدي ثوبًا أسود وعلى رأسها غطاء رأس لا هو بالحجاب ولا هو بالقبعة وهي تصيح فيه:

- نعم يا حضرت.

- ممكن كلمة، أنا أبحث عن السيدة "ناهد عوض خليل".

- أنا "ناهد عوض خليل".

هل تعرف ذلك الشعور حينما تنظر إلى امرأة كان من المفروض أن تكون أمك؟ شعور غريب يتملكك حينها، لا تملك أن تكرهها مهما كانت الحالة التي هي عليها، تبدو امرأة سوقية، نعم هناك حظٌّ من تعليم بدا على لهجتها ولكنها ليست الأم المثالية على مستوى الجمهورية بالتأكيد. ليست الأم التي تقدمها للآخرين بكل فخر.

كانت (ناهد خليل) تختلف عن أمه تمامًا، بيضاء البشرة، في أوائل الأربعينيات من عمرها، قصيرة القامة، تكثر من وضع مساحيق التجميل بلا مبرر، جسدها ممتلئ من الأسفل على نحو ملحوظ، غير ذواقة في اختيار ملابسها بالتأكيد، أين هي من أمه تلك المرأة الأرستقراطية التي يعتبرها بوصلة للأناقة في عالم النساء، ببشرتها

القمحية المحببة إلى النفس وشعرها الكستنائي الغجري الذي يحبه على النساء.

صمت للحظة وهو يتأمل "ناهد" وخصوصًا ذلك الوجه القاسي الذي يتجهم ويتعصب أكثر مما يبتسم، هذه المرأة ليس لديها ما يسعدها في الحياة، طال صمته فصاحت فيه المرأة في حنقٍ:

- هل ستتطلع إلى جمال منظري طوال الوقت، ماذا تريد؟

- هل لي بكلمة معك على انفراد؟

- نعم نعم يا حضرت! من أين تعرفني أنت حتى أجلس معك على انفراد؟

- لم أقصد ما فهمتِه.. كلمة بالداخل، لا يصح أن أتكلم على الباب.

بدا كلامه منطقيًّا لها فأفسحت له المجال، دخل للبيت وهو يملي عينيه منه، بيت متوسط الحال، أثاثه قديم ويبدو متهالكًا، لم يكن يوحي بيُسر الحال ولكنه يصلح مسكنًا أسريًا على كل حال، وإن بدا أن البيت يفتقد إلى الذوق العام في تنسيقه، هذا بيت امرأة ولكن ليست أنثى، وشتان بين تنسيق هذه وتلك.

جلس على أحد المقاعد وسط النساء الخمس المتواجدات وهن يرمقنه وكأنما يخضعنه للفحص، شعر بشعور فئران التجارب تحت عوينات العلماء وهو شعور بغيض، هو نفسه جاس بنظره فيهن للحظات وكأنما يسبرهن من الداخل قبل أن يعود بنظره إلى "ناهد" مرة أخرى.

جلست السيدة "ناهد" أمامه وهي تقول:

- بسرعة يا حضرت، الوقت غير مناسب كما ترى.

- الموضوع بسيط، أنا آسف لتطفلي ولحضوري دون موعدٍ، حضرتك من عشرين سنة كنت قد ولدتِ في المركز الطبي الجديد، في نفس ساعة و يوم ميلادي وظنت أمي بالخطأ أنني ربما أكون قد

تبدلت مع مولود آخر، وربما كنت لأكون ابنك، فجئت أستطلع كيف سيكون شكل حياتي لو كنت ابنك ولأتعرف عليه إن كان متواجدًا.

نظرت (ناهد) للنسوة حولها في دهشة وهي تضرب كفًّا على كف قبل أن تقول:

- هل أنت مجنون يا أفندي، تبحث عن أم ليست أمك لترى كيف سيكون شكل حياتك، إما أنك فاضي وعديم المنفعة أو مجنون جاء يلقي بمصائبه علينا.

شعر "محمد" بالإحراج فقام بالنهوض معتذرًا، كان يتوقع مثل ذلك الرد فما يفعله ليس منطقيًّا بالمرة، ولكن المرأة أوقفته قائلة:

- هل أمك تعرف أنك هنا؟ هل وافقت على ذلك؟

- نعم تعرف ولكنها لا توافق على بحثي.

- لديها كل الحق في ذلك، ابن مثلك يفرح القلب الحزين ويذهب لكي يبحث عن مستقبل الشؤم والندامة.. اذهب إلى أمك يا "حضرت" فما عندها خير وأبقى.

- لمَ تقولين هذا؟

- أنت لا تعلم شيئًا، لو عاد بي الزمن لرشوت الممرضات أن يبدلن الأطفال عسى أن تكون من نصيبي.

- ماذا عن ابنك؟

- مصدر المشاكل في حياتي، يا ليته مات ساعة ولادته، هل رأيت ذلك الشاب الذي يتشاجر والدم على جسمه، هذا هو المحروس ابني، بلا فخر، وجه الإجرام، آخر صبري (على عباس).

ردد "محمد" خلفها مبهوتًا وقد شعر بأن هناك شيئًا ما خطأ:

- "علي عباس" أليس اسم زوجك (إسماعيل صبري)

- "إسماعيل" زوجي الثاني، زوجي الأول الله يرحمه ويسامحه اسمه (عباس حلمي) مات منذ سبعة عشر عامًا وترك لي المحروس ابن خمس سنوات حينها.

صمت "محمد" وهو يقول:

- يبدو أنني أثقلت عليك يا أمي وذكَّرتك بما لا تودين تذكره، سأنصرف الآن.

أوقفته المرأة بإشارة من يدها وهي تقول:

- سأطلب منك شيئًا ما، اذهب إلى أمك وقل لها حدث تبديل في المواليد، اجعلنا نتبادل، تأخذ هي "علي" وآخذك أنا، حلو تبادل الأمهات هذا، هل يعجبك؟

ضحكت النسوة لعبارتها وشعر "محمد" بالحرج الشديد وهمَّ بقول شيءٍ ما لولا أن تعالى صياح جديد على درج البناية قطع عليه حبل حديثه فخرج الجميع لاستطلاع الأمر.

كان الشباب الآخرون قد عادوا بأسلحة أكثر وأعداد أكبر وطاردوا (علي) وجماعته حتى لاذوا منهم بالبناية واقتربوا من الشقة، ما هي إلا لحظات حتى أصبح الشجار داخل الشقة نفسها والشباب لا يتوانون عن ضرب النساء أنفسهن حينما تعرضن لهم مانعين إياهم من الدخول.

همَّ أحدهم بضرب السيدة "ناهد" وشعر "محمد" بالغضب الشديد، نعم هي ليست أمه ولكنها كانت لتكون كذلك؛ لذا وجب عليه الدفاع عنها، كما أنه يكره من يضرب النساء فاندفع يتشاجر مع الشاب في عنف، لم يكن قد خاض شجارًا قاسيًا من قبل، قتال شوارع لا يعرف قوانين، نعم هو يجيد بعض حركات القتال ويمكنه الدفاع عن نفسه بشكل ما، ولكنه غير متمرس فيه ولا يحبه،كما أن سكين الآخر نالته في عدة مواضع من كتفيه وظهره لينزف بغزارة.

نجح الشباب والنسوة في طرد عصابة المهاجمين خارج المنزل وكان "علي" يلوح بالسيف في وجههم مطلقًا سيلاً من الشتائم القذرة والتهديدات الجوفاء قبل أن ينتبه إلى وجود "محمد" فيشير لأمه قائلاً:

- من جميل المحيا؟

همَّ "محمد" ليعرّف بنفسه وهو يغالب دوّامة سوداء تداهم عقله وتحاول سحبه إلى هوة ذات قرار عميق قبل أن يقول في وهنٍ:

- أنا...

لم يكمل تعريفه فقد سقط أرضًا وغاب عن الوعي تمامًا..

الفصل الخامس

(ابن عباس وتربية إسماعيل)

أول ما طالعه "محمد" حينما أفاق كان وجه السيدة "ناهد" كانت عيناها محتقنتين من شدة الضيق، وبجوارها وقف ابنها "علي" ثم رجل آخر في أواخر الخمسينيات طويل القامة على نحوٍ مَلحوظٍ وقد ارتدى جلبابًا شعبيًّا قدَّر أنه لا شك "إسماعيل" زوجها.

كان يرقد في مستشفى قدر أنها مستشفى حكومي، فهو راقد على حشية فراش على الأرض، هناك محلول معلق على الحائط بشكل بدائي، كثير من الزائرين في العنبر الذي رقد به نحو عشرين شخصًا على أقل تقدير.

هناك ممرضة تطوف على المرضى ولا تفعل شيئًا غير الحديث، كان أول من تكلم هو "إسماعيل" إذ قال مبتهجًا وكأنما انزاح همٌّ من على صدره:

- أخفتنا عليك يا أستاذ، كنت ستحضر لنا مصيبة في قلب البيت.

عقب "علي" قائلاً بنبرة سوقية:

- إنت ناعم جدًّا يا عم، قليل من الدم نزفت ولم تحتمل، ماذا عني أنا أحارب وأنا مصاب طول الوقت. ولا أسقط أبدًا.

ضربته "ناهد" أمه على ظهره قائلة:

- اخرس، حسابك معي بعدما نرجع للبيت يا وجه المصائب وجالب المشاكل.

تدخل "إسماعيل" صائحًا بها:

- أي بيت! الولد المتشرد هذا لا يدخل بيتي أبدًا، يوم ما يدخل بيتي أنتِ طالق.

ضربت السيدة على صدرها في لوعة وتصايح الرجلان وتشاجرا فيما بينهما والممرضة تهرع لتطلب منهما الخروج لتصفية خلافاتهما بالخارج فآخر ما تريده هو تعكير مزاج اللاشيء الذي تفعله.

خرج الرجلان والسيدة تقول في غضبٍ:

- ابن المتعوس دائمًا ما يخرب عليَّ، كل يوم والآخر أتطلق بسببه.

بدا "محمد" أنه لم يفهم ذلك الجزء فقال لها:

- ألم تقولي أن "إسماعيل" هو زوجك الثاني، كيف تتطلقين كل هذه المرات؟

- نعم كل يومين يلقي عليَّ يمين الطلاق لو خالفته، وبعد ذلك يرجع في كلامه "عادي".

- لا أظن أن هذا يجوز.

- شيخ الجامع الشيخ (الملواني) قال يجوز.

- ربما الشيخ البحباني يفتي بذلك لكن أي شيخ محترم لا يستطيع الإفتاء بذلك، أنا دارس للشريعة الإسلامية لا يوجد طلاق فوق ثلاث مرات، عموما اسألي شيخًا آخر لو أنت مهتمة بالأمر.

قالت له مقاطعة:

- المهم هكذا اطمأننا عليك، ولا داعي لأي شيء.. بالمناسبة أخبرنا إدارة المستشفى أننا وجدناك على قارعة الطريق فلا تقل لهما إنك أصبت في منزلنا، لقد كنا سنأخذك مباشرة إلى عنوانك الذي كتب في بطاقة هويتك ولكننا خشينا أن تموت منا في الطريق.

- حسنًا سأفعل ولكن لدي سؤال؟

- تفضل..

- ما الذي حوَّل ابنك إلى هذا السلوك الشرس؟ تفهمين ما أقصده.

- والله لا أدري، كان يسعدني حينما ولد، وبعد ذلك أيام المرحوم (عباس) الله يرحمه ويسامحه، كان مدرس تاريخ، مات بالفشل الكلوي، بعده اضطررت للزواج حتى أعيله من المعلم "إسماعيل" تاجر أدوات صحية، ولكنه كان يعامل "علي" بمنتهى القسوة، وخصوصًا أنه لا ينجب.

تنهد "محمد" وهو ينظر لها متمعنًا:

- ربما لهذا السبب هو معوج السلوك.

- لا هو بذرة غير صالحة، زرع شيطاني، الشدة مطلوبة مع أمثاله، المهم لا تأتِنا مرة أخرى، أنت ترى ما نعانيه من مشاكل ولا نريد همومًا إضافية.

بحث عن متعلقاته فلم يجدها، قبل أن تخبره السيدة "ناهد" أنها بالأمانات في المستشفى ويمكنه استردادها حينما يخرج.

شعر أنها متحرجة من البقاء بجواره فقال لها:

- لا أرغب بإطالة جلوسك هنا، يمكنك الانصراف يا أمي.

نظرت له في صمتٍ للحظة قبل أن تقول:

- هل يمكن أن تقولها مرة أخرى؟

- ما هي؟

- كلمة يا أمي..

ضحك رغما عنه وأحس بضحكه يؤلم جروحه المتعددة قبل أن يبتسم قائلاً:

- حسنًا يا أمي.

ابتسمت وهي تقول مربتة على يده:

- فكر في موضوع تبادُل الأمهات هذا.

انصرفت السيدة عنه ولم تنتظر منه ردًّا فابتسم مرة أخرى في وهن، كان يود الحصول على هاتفه المحمول لمكالمة والده أو على الأقل "مالك" لا يعرف كيف سيخرج من هنا، ولا كيف سيحضر سيارته التي تركها هناك، الكثير من الأمور العالقة التي لا بُدَّ من إنهائها.

جاءه الطبيب يطمئن عليه، همس للطبيب أنه يود استعارة هاتفه لمكالمة أهله، توسم الطبيب فيه خيرًا فسيماء النبل تظهر على وجهه فناوله الهاتف مطمئنًا، طلب "مالك" وهو يسأله أن يحضر لاستلامه من المستشفى وهو يعطيه اسمها وعنوانها بعد ما أخذه من الطبيب وطلب منه أن يحضر قميصًا نظيفًا معه لأجله.

جاءت الشرطة بعد ذلك لعمل محضر شكلي فطالما هو سَليمٌ ولم يتقدم بشكوى ضد أحد فعملهم انتهى، كانوا يسمعون بمشاجرات الشوارع تلك ويعرفون باندلاعها ولكنهم لم يتدخلوا يومًا لإنهائها من منطلق دعهم يقضون على بعضهم ولنحضر بعد ذلك لتسجيل المحاضر.

فقط أكثر ما كان يضايق الشرطة أن محترفي هذه المشاجرات من غير ذوي الخبرة كما كان بالسابق، حينما كان المتشاجر القديم ربما يصيبك بألف جرح وكأنه مشرط طبيب، تنزف ولكن لا تموت، أما حاليًا فكلهم هواة، يضربك ضربة واحدة تؤدي إلى وفاتك دون أن يقصد هذا، ذهب زمن المشاجرات الجميل.

جاء "مالك" إلى المستشفى وعلى وجهه الانزعاج والقلق، وما إن شاهدَ أخاه على فراش العلاج حتى انطلق يحتضنه في قوة فصاح (محمد):

- مهلاً يا "مالك" جسمي لا يتحمل، هيَّا بنا نعود للبيت.

ساعده "مالك" في القيام بإجراءات الخروج وهو يلبسه ثيابه ويغادران على عجَلٍ، كانت الشمس قد شارفت على الغروب، سأله "مالك" في قلقٍ:

- أين سيارتك؟

- في مكانٍ ما قريبٍ من هنا، ولكني لا أقدر على المشي إليها.

- إذًا، أعطِني المفتاح وسأحضرها هنا.

- بشرط أن تقود بهدوء.

- يا عمي هل تراني أدوس الناس في الشارع؟ الأمور ستصبح بخير.

أعطاه "محمد" المفتاح بعد تردُّدٍ واختفى "مالك" لعدة دقائق قبل أن يعود بالسيارة ويبدل مكانه مع "محمد" وهو يسأله:

- هل ستقدر على القيادة أم أكمل معروفي معك؟

- لا شكرًا، المعروف تم واكتمل، لو رأتك أمي تقود السيارة ستعرف أن هناك خطبًا ما.

- ألن تخبرها؟

- مستحيلٌ، ستمنعني من إكمال بحثي، وستوبخني على ذلك من الآن ليوم الدين.

- وما ثمن صمتي؟

- ما طلباتك يا انتهازي؟

- قميصك الأزرق الجديد.

- لا يغلى عليك، خذه واكتم السر.

ضحك "مالك" وهو يقول:

- حبيبي يا "محمد" هيَّا بنا إلى البيت.

***

هناك دراسة أثبتت أن أذكى ثلاث نساء على وجه الأرض هن (ماري كوري) و(هيلين كيلر) و (أماني حجازي) التي ما إن دلف ابنها "محمد"

إلى المنزل ولاحظت مشيته الواهنة وتعابير وجهه المتعبة حتى أسرعت نحوه تقول له:

- ما الذي حدث لك؟

- لا شيء يا أمي، لا شيء.

- كيف هذا، وما هذا الدم على قميصك؟ هذا ليس القميص الذي خرجت به أصلاً.

لم ينتبه "محمد" أن هناك بقايا دم على قميصه، رغم أنه بدله في السيارة، وقدر أن سيكون رهينة تحقيق الجستابو هذا طوال الليل فقال لها مستسلمًا وهو يرفع الراية البيضاء موفرًا على نفسه الوقت:

- عبرت من خلال شجار شوارع وأصبت خلاله إصابة سطحية.

رغم علمه بمدى رُقي أمه في الحديث إلا أنها صاحت في هلعٍ:

- يا مصيبتي، متى وأين؟ أرني هذه الإصابة السطحية.

كشفت عن ثيابه وسط تذمره وممانعته وهالها منظر الجروح العديدة المضمدة قبل أن تهتف به:

- أخبرني الحقيقة كلها.

همَّ "محمد" باختلاق قصة وهمية ولكن أمام إصرار أمه والتعب الذي يشعر به، استسلم لها وهو يروي منذ البداية ما حدث له حتى لحظة خروجه من المستشفى فالتفتت إلى "مالك" في غضب قائلة:

- ومتى كنتما ستخبراني بالأمر؟

رفع "مالك" كتفيه وخفضهما في إشارة أن الأمر لا يعنيه ولا يعرف إجابة لسؤالها وهي تساعد "محمد" على الحركة مجددًا، كانت تود الشجار معه ولكنها أجَّلَت الموضوع لما بعد، أرقدته على سريره وهي تسأله:

- هل أكلت شيئًا؟

صمت ولم يجب فقدرت أنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح، أسرعت تختفي لعشر دقائق ثم عادت بصينية طعام بها دجاج وحساء وسلاطة.

تناول طعامه أمامها في شراهة وهي تمسح بيدها على رأسه قبل أن تقول:

- والدك لن يعجبه هذا.

- سيتفهم الأمر.

- أنا مسكينة بينكم، ثلاثة صبيان على بنت واحدة.

- نحن رجال الآن يا أمي، قولي ثلاثة رجال وامراة، وأنت الملكة على القلوب.

- الرجل لا يدع أمه تقلق.

- الرجل يحتاج إلى إجاباتٍ حتى يجد هدفه بالحياة.

- وهل وجدت إجابات؟ لم تجد سوى إصابات.

رفع يدها إلى فمه وطبع عليها قبلة فصمتت للحظة قبل أن تقول:

- ماذا يعني هذا؟

- يعني شكرًا على الطعام وعلى كل شيء.

- لا تعد إلى تلك الأسرة مرة أخرى..

- لا أظن أنني سأعود لهم مجددًا، ولكني سأكمل البحث.

قالت له في دهشة:

- هل هناك من أُخريات؟

ابتسم "محمد" وهو يقول:

- "ناهد" الثانية.

الفصل السادس

(ناهد وآه من ناهد)

مرت بضعة أيام بعد ذلك قضاها "محمد" في المنزل ووالدته تعني به لم يتبادلا خلالها حديثًا كثيرًا عن الأمر، ولم يفعل شيئًا أثناء ذلك سوى مشاهدة التلفاز ثلاثي الأبعاد أو قراءة بعض الكتب الخاصة به.. كان والده قد عاد من سفره وقد عاتبه كثيرًا لتورطه في شجارٍ لا يخصه قبل أن تهدأ ثائرته ويطلب منه الانتباه لنفسه المرة القادمة، بدأ من جديد يسترجع ذكرياته عما حدث هناك، ويحلل ما وجده.

المستقبل المحتمل ليس بالشرط أن يكون جيدًا، ربما يكون سيئًا وأسوأ مما يتصور، نعم الأسرة لا تعاني من شظف الحال وضيق المعيشة ولكنهم يعانون الفوضى وهذا أسوا شيء ممكن أن تعانيه أسرة في الوجود.

كان يمكن لهذا أن يكون مصيره، شاب فوضوي لا أمل له ولا هدف في الحياة، سوقي الألفاظ والطباع، وأم لا تعرف عن الدين سوى قشور وتعيش في كنف زوج أم لا يعرف هل زوجته هي حلاله أم أصبحت عليه محرمة منذ زمن بعيد.

ليس هذا ما كان يتمناه، حينما شكر أمه، لم يكن يقصد شكرها على العشاء، كان يقصد شكرها على أنها أمه وكفى.

الإنسان لا يحب أمه لكونها أجمل أو أذكى النساء ولا لكونها شهيرة أو ثرية، الإنسان يحب أمه لأنها توفِّر له البيئة المناسبة وتحتويه ولا تسبب له أذي، هناك أم تدرك أن أبنائها أمانة وقد بدأت حمل الأمانة منذ أن كان هؤلاء الأبناء بالرحم الذي هو بيت الأمانة الأولي ثم في المهد ثم يشب الأبناء أمام أعينها وتقع الأمانة هنا مشتركة بين كلا الوالدين، هناك أم تأخذ الأمانة بحقها وأخرى تضيعها وبين الاثنين هناك ابن ينهض وينجح وآخر يكبو ويفشل

شعر بالتعاطف مع الشاب "علي" على أي حال، ربما لو عاش في ظروف طبيعية لكانت نهايته مختلفة، الشاب عشوائي ولكنه لا يحمل ملامح تشي بذلك، يبدو عليه مخايل من الصحة والذكاء تختبئ خلف ذلك الستار القاسي من العنف والعشوائية، من المؤسف أن يطلق لقب نهايته على شاب في مطلع حياته، كم من سيء حظ انتهت حياته قبل أن تبدأ والأسباب كثيرة ربما صدمة عاطفية، موت، مرض، عجز أو حتى سجن.. هو قدَّر له المستقبل شيئًا آخر، هو ابن "علي" ولكن تربية "إسماعيل".

لا يدري أين قرأ من قبل أن من كان مرباه على العسف والقوة ربي على الجبن والكذب، نعم يتذكر الآن، قالها (ابن خلدون) في مقدمته الشهيرة.

ربما لو تربي في كنف أبوه الطبيعي مدرس التاريخ، لصار راقيًا بشكل أفضل، طبعًا ليس كل مدرس راقيًا وليس كل تاجر أدوات صحية سوقيًّا، ولكن تغلب الأمور على البعض منهم.

بالتأكيد هو ليس ابنًا لـ "ناهد" هذه ولن يتمنى أبدًا أن يكون، يزداد اقتناعًا بعبارة والدته أنه لن يجد أمًا أفضل منها على الإطلاق.

شعر بالدهشة من كلامها عن تبادل الأمهات، هل قصدت حقًّا ما عنته، أم هي لحظات غضب مؤقتة من ابنها، لا يوجد أم مهما بلغت

قسوتها ولا غضبها من أولادها أن تبدلهم بغيرهم حتى ولو كانوا أجمل وأفضل وأقوى وأذكى.

يعرف زميلاً له بالمدرسة كان لديه متلازمة (داون) ولكن أمه كانت تعتبره بطلها الأسطوري ولم ترضَ عنه بديلاً في حياتها قط حتى إنها فارقت والده حينما لم يعجبه ابنه، الأم ترى الأمل في ابنها حتى آخر لحظة في حياتها أو حياته أيهما سبق الآخر ولا يستطيع قلب أم أن يقسو على أبنائها قط.

لا يعرف من الجاني هنا، هل أساء الابن لأمه بانحراف سلوكه أم أساءت هي له بسوء اختيار من يرعاه ودعمه في طريقته الشديدة غير التربوية معه، أم ذلك الأخير الذي مكَّنَه الله على صبي يتيم فخالف وصية الله ورسوله فيه، الذنب الأكبر يقع هنا على الأم؛ لهذا طلبت أمه من أبيه ألا يتزوج بعدها إن ماتت، هي كانت تخشى من حدوث ذلك الشيء.

لا يؤمن أن هناك إنسانًا سيئًا بالفطرة ولكن البيئة هي التي تشكل الإنسان، وما خلاف ذلك استثناءات على القاعدة، نعم القرد هو من سلالة القردة، ولكنه يمكن له أن يتعلم أفضل مهارات البشر لو عاش معهم، ولا يمكن لفتاة تعيش في وسط سيء أن تكون صوامة قوامة، وما خلاف ذلك فقط شذوذ عن القاعدة، لو أتينا مثلاً بالجزر ووضعنا بعضه في ملح وبعضه في سكر لصار الأول مخللاً وصار الثاني مربى، هكذا هي البيئة.

على أي حال هو لم يعجبه المستقبل المحتمل لو تبدل مع "علي" ولكن "علي" لا شك كان سيكون سعيدًا لو صار ابنًا لـ "حسام" و "أماني".

جاءه أثناء مكوثه في المنزل اتصالٌ من "فريدة" كانت زميلته في الجامعة علنا، ولكن ما بينهما أكبر من رباط الصداقة، كانا يكنان لبعضهما بذرة حب قاما بسقياها بهدوءٍ حتى أنبتت زهرة عشق خفي.

لم يحادثها منذ الحادث وكان هذا يزيد ضيقها منه لأنها شعرت بأنه يتجاهلها، ولذا أخذ يفكر في اعتذارٍ يليق بذلك الهجر الذي حدثَ من طرفه، رفع هاتفه المحمول ليجيب في لهفة:

- "فريدة" حبيتي..

أتاه صوتها الغاضب مستنكرًا:

- حبيبتك يا "محمد"! لقد نسيتني تمامًا، لو لم تكن تريدني، أجبني حتى لو برسالة.

- يا "فريدة: أنا كنت في ظروف سيئة .. أعتذر.

- تعلل بالظروف والأعذار، ما الذي يمنعك عن الرد، طريح الفراش مثلًا؟

- آه والله كنت طريح الفراش.

انقلب غضبها إلى جزع وهي تقول:

- سلامتك يا حبيبي، ألف سلامة، ما الذي حدث لك؟ لمَ لم تتصل بي؟

- سأحكي لك كل شيء، ولكن أريد أن أراك.

- لو لم تكن تستطيع الحركة، يمكنني أن آتي لأزورك.

- لا يا "فريدة"، أنا ببيت أهلي، ولم أفاتحهم بِشأننا بعد، أريد أن أقُدِّمك لهم في ظروف أفضل.

- حسنًا، كيف سنتقابل إذًا؟

- أنا اليوم بخير، سأقابلك في مكاننا المعتاد، مقهى (بني بني) بعد ساعة، هل يناسبك هذا؟

- طبعًا، سأكون هناك في الموعد.

بعد ساعة بالضبط كان "محمد" قد وصل إلى المقهى، كانت هي تجلس مولية ظهرها للباب، اقترب منها برفق ووضع يديه على عينيها، ابتسمت وهي تقول:

- أعرفك من عطرك يا حبي.

رفع يديه عن عينيها وهو يجلس قبالتها قائلاً:

- المرة القادمة سأتسلل من دونه.

ابتسمت قائلة:

- سأعرفك أيضًا، هيَّا لا تأخذني من غضبي عليك، فأنا أتقمص الشخصية منذ الصباح، ما الذي حدث لك؟

تطلع "محمد" لها للحظات وكأنه ينهل من ينابيع ملامحها، كانت سمراء البشرة ولها قسمات دقيقة محدودة، شعرها قصير ولكنه يلتف على رأسها مثل التاج، وعيناها العسليتان تطلقان نحوه سهامًا من السحر لا قبل له بها ،كان "محمد" يود ألا يخبرها بالقصة ولكنه وجد أن إخبارها بالحقيقة خير اعتذار عن انقطاعه عنها فأسرع يسرد على مسامعها كل شيء بالتفصيل وهي تنظر له مذهولةً قبل أن ينتهي قائلاً:

- وبعد أن انتهت مغامرتي الأولى ها أنا هنا بين يديك أقدم فروض الحب والإخلاص لزهرة حياتي.

قالت وهي تهز رأسها:

- قصة عجيبة ولكن اسمح لي أن أسألك نفس سؤال أمك؟

- ما هو؟

- لماذا تبحث عن مستقبل محتمل، ألست سعيدًا بما أنت فيه؟

- مبدئيًّا ليس مستقبلاً، الأصح لغويًّا أنه حاضر محتمل، ولكن لنستخدم كلمة مستقبل للدلالة على مستقبلي لو كنت رضيعًا وبودلت.

- حسنًا يا فليسوف اللغة والمنطق، لماذا؟

- لا أشعر بنفسي مؤخرًا، لقد أنهيت دراستي وسأبدأ في أول عمل حقيقي لي، ولكن هناك سؤال بداخلي، هل هذا حقًّا ما كنت أريده، ألا يمكن أن يكون لدي خيارات أخرى، هو سؤال مصيري وأبحث له عن إجابة.

مالت نحوه قائلة:

- وهل كنت ستحب ألا يشملني حاضرك المحتمل؟

كان سؤالها خبيثًا وأدرك أن إجابته صعبة فقال لها:

- يا حبي أي حاضر محتمل في حياتي كنتِ ستكونين فيه، أنت قدري كما تعلمين.

احمرت وجنتاها خجلاً فقالت وقد اكتفت بهذه الإجابة منه:

- حسنًا هل ستكمل بحثك؟

- طبعًا.

- من التالية يا ترى؟

كان قد احتار بأي المرأتين الأخريَيْن يبدأ قبل أن يلتقط الورقة من جيب سترته ويقرأ اسميهما من جديد (ناهد عبد اللطيف حسين) و (ناهد وليم ناشد).

الاسم الأخير يبدو مسيحيًّا، هل يبدأ به أم يلغيه من الأساس؟ لا هو لن يلغي شيئًا يجب أن يرى كل الاحتمالات فقرر إبقاء (ناهد وليم ناشد) إلى الآخر لتكن مسك الختام والبدء بالأولى الآن.

قال لها وهو يستدعي النادل ليطلب لها شيئًا لتشربه:

- سأبدأ بـ (ناهد حسين)

قال عبارته وهو يتساءل في قرارة نفسه:

يا ترى يا (ناهد)

كيف سيكون مستقبلي معك

وإلى أين سيأخذني الطريق

***

في الصباح التالي قرر النزول والذهاب إلى العنوان المذكور، طلبت منه أمه أن ياخذ "مالك" معه تحسبًا لأي مفاجآت، شعر أن بالأمر رقابة شديدة ولذلك تظاهر بالضيق، كان والده هناك ولكنه لم يتدخل بينهما كالعادة، هو حمامة سلام خبيثة نوعًا ما.

تزعم والدته أن والده يحب السيطرة ولكنه يرى العكس يرى أن والدته هي صاحبة الإرادة القوية والشخصية المسيطرة، فاجأها مرة بهذا السؤال:

- لماذا والدي ضعيف الشخصية؟

- من قال هذا، والدك قوي الشخصية جدًّا ولا أحد يستطيع التغلب عليه.

- ولكنك فعلت، أنتِ تقودين الأسرة في كل شيء بالفعل.

- هو يحب أن يوهمني أنني أقود من الأمام بينما هو من يحرك الدفة من الخلف، أبوك ليس سهلاً كما تعتقد وضعف شخصيته الذي تراه هو حكمة بالغة ليس إلا، هو يقودني إلى حيث يريد دون أن أدري ويضحك في سره بينما أحتفل أنا بانتصاري المزيف عليه.

مالت بعدها نحوه هامسة لئلا يسمعها أبوه:

- هل تعرف (محن السيد كهن)؟

تعجب من الاسم قبل أن ينتبه لما ترمي له أمه فضحك لعبارتها وهو يقول:

- لا أعرفه، من هو؟

- أبوك، وأنت أيضًا أحيانًا و"مالك" أغلب الوقت، كلكم "مُحن السيد كهن"، أنا مسكينة معكم.

والده لم يتدخل بينهما، وقرر هو عقب اعتراض والدته العنيد عدم الذهاب والجلوس على الأريكة طوال الصباح، شعرت أمه بالقلق عليه، نظرت إلى أبيه في تكتيك مدروس فيما بينهم عله يتدخل فتنحنح ذلك الأخير وهو يغلق التلفاز قائلاً:

- هل ستجلس هنا طوال اليوم؟ اذهب لتكمل بحثك.

- لن أذهب مع "مالك" أنا لست صغيرًا.

- حسنًا، يجب عليك الذهاب معه وذلك حسب الخطة سبعة، لكن لا تتأخر ولا تتورط في شيء.

تهللت أسارير "محمد" وهو ينهض ليحتضن والده ويمضي في سعادة، كانت هناك لغة سرية ابتكرها فيما بينه وبين والده، حينما يخبره برقم خطة ما ينفذها ولا ينتبه لها أحد غيرهم وقد فطن أن والده يرشده إلى التخلص من "مالك" في طريقه وبهذا لا تقف أمه في وجه بحثه، خرج هو و "مالك" في عجالة قبل أن ينظر"حسام" إلى "أماني" قائلاً:

- هانت تبقى ثلثا المسافة ويعود إليك، لا تقلقي.

قالت له:

- ابنك عنيد مثلك ولا يتراجع أبدًا.

ردَّ عليها وهو يشير إليها أن تجلس بجواره قائلاً:

- هو عنيد ولا أنكر ذلك ولكني لست مثله، أتعلمين في صغري حينما كنت بالقرية، أنت رأيتِ بيتنا هناك ورأيت المكان، كانت مدارسي الثلاث الابتدائية والإعدادية والثانوية على قُرب مئات الأمتار فقط من البيت ولم أذهب خارج الطريق المحدد لي أبدًا، وكان إلى الشرق من بيتنا بوابة خراسانية تؤدي إلى قرية أخرى، كانت البوابة قريبة وكنت أتحمس أحيانًا لأن أعرف ما الذي يوجد في القرية الأخرى، طَوال سنوات أقترب من البوابة وأحاول المرور، ولكني أحجم وأتراجع،

كنت أشعر بالخوف وأخشى أن أعبر البوابة فأضيع وأتوه من أهلي ومن نفسي، ابنك "محمد" مختلف، هو قرر عبور البوابة ولم يخشَ شيئًا، هو أفضل مني في ذلك.

صمتت "أماني" لحظة وهي تحاول استنباط المغزى العميق من قصته قبل أن تقول:

- أذكر تلك البوابة، لقد حكيت لي عنها من قبل، قل لي هل عبرتها فيما بعد؟

- مئات المرات حينما كبرت، وصدقيني لم أجد شيئًا مختلفًا هناك، لم أضع ولم أتعرض لسوء، ولذا دعي ابنك يعبر بوابته الخاصة.

صمتت ولم تجبه وهي تفكر إلى أين ستقود البوابة ابنها؟

وهل سيضيع منها؟

أم يعود؟

***

قاد "محمد" سيارته نحو حي (سموحة) الشهير، كان الحي هو موطن صفوة المجتمع حيث سكنه الأطباء ورجال الأعمال والمهندسون وعلية القوم بعدما تركوا أحياء الإسكندرية الأرستقراطية القديمة مثل زيزينيا وسان ستيفانو وغيرها، قرأ أنه كان من قبل مكانًا بعيدًا ليس به سوى عشش وغير مستحب للسكنى في الستينيات ولكنه الآن أصبح مقصدًا لعلية القوم والشقة به بملايين الجنيهات وكل ساكني المنطقة من الأثرياء سواء بلغوا ثرواتهم بطرق مشروعة أو غير مشروعة.

طبعًا هناك الكثير ممن سكنوا هذا المنطقة قبل أن تغلو هذا الغلو الفاحش في الإيجارات، في الطريق كان يفكر كيف سيتخلص من "مالك" قبل أن تواتيه فكرة حيث خفض من سرعة سيارته وكأن

الأمر حدث رغمًا عنه قبل أن يتوقف بها فجأة على طريق البحر فسأله "مالك" في قلق:

- ما الذي حدث؟

- لا أدري، أظن شيءٌ ما أصاب الإطارات، هل يمكنك النزول للتحقق؟

نزل "مالك" من السيارة مرغمًا وهو يتفحص الإطارات ليتفاجأ بـ "محمد" ينطلق من دونه مسرعًا بالسيارة و هو يهتف به:

- سأعود لك لاحقًا..

أخذ "مالك" يعدو وراءها ولكنه لم يدركها فلوَّح بيديه غاضبًا وهو يصيح بشيءٍ ما لم يسمعه "محمد".

وصل "محمد" إلى العنوان المكتوب بالورقة، كان بناية قديمة فاطمأنت نفسه إلى أنه سيجد بنسبة كبيرة ضالته هنا إلا لو كانت قد انتقلت إلى مكان آخر.

هناك حارس أمن بالباب ينظر له في ريبة، بالتأكيد حارس الأمن سيساعده، اقترب منه وعلى شفتيه ابتسامة ودودة ملقيًا التحية وهو يقول:

- صباح الخير، هل يمكنني أن أسأل عن أحد السكان هنا؟

- تفضل..

- اسمها "ناهد حسين" "ناهد عبد اللطيف حسين".

نظر له الرجل من أسفله إلى أعلاه وكأنما يتفحصه، قبل أن يقول له وكأنه يعرفها جيدًا:

- الدور السادس، شقة تسعة.

كان بكل طابق ثلاث شقق، قدر أنها ربما من النوع ذي المساحات الصغيرة فالبناية لا تشي بكل هذا الاتساع من الداخل، ما إن تحرك

بضع خطوات حتى سمع من خلفه عبارةً ندت من بين شفتي الحارس قائلاً:

- ربنا يتوب علينا من هذا العمل.

لم يعرف هل هو متضايق من عمله فعلاً، أم من شيءٍ آخر، هناك الكثيرون من معتادي الشكوي من كل شيء، ولا تعرف هل الحياة قاسية معهم أم أنهم فقط يحبون الشكوى كسبيلٍ لنشر الطاقة السلبية فيما حولهم، ولكن "محمد" لم يلقِ بالاً لذلك كله وهو يستمر في طريقه، المصعد يعمل لحسن الحظ، بالواقع هناك مصعدان بالبناية، هذه مكان جيد للسكنى، أعتقد أن مستقبله مع "ناهد" هذه كان ليكون أفضل بكثير، ربما المستقبلات المحتملة ليست كلها سيئة.

وصل للطابق السادس، هناك موسيقى خافتة تصدر من الشقة التاسعة هناك، لا بُدَّ أنها أسرة سعيدة بالفعل، قبل أن يطرق الباب تساءل ماذا سيفعل لو فتح له رجل، ليس كل الرجال ودودين أو يتقبلون ذلك النوع من مهمات البحث عن الذات، تخيل لو طرق بابك أحدهم وهو يصيح "مرحبًا أنا أبحث عن ذاتي" لربما ظنوه لصًا أو قاتلاً ولكنه هيَّأ نفسه لكل الاحتمالات، تأكد من شكله وأنه لا يبدو مريبًا.

دق "محمد" جرس الباب مرة واحدة في رفق وانتظر، لم يسمع وقع أقدام قادمة، مرت دقيقة دون أن يشعر بشيءٍ، ربما هم ليسوا متواجدين، ولكنه لو كان كذلك لأخبره رجل الأمن، هو لم يأتِ مبكرًا، الساعة الآن الواحدة ظهرًا، ليس وقت نومٍ لشخص يستيقظ متأخرًا أو ينام قيلولة، هو يعرف ذلك بصفته الخبير العالمي في النوم حسبما تقول أمه.

شعر بشيءٍ خلف العين السحرية بالباب، هناك من ينظر له، نظر للعين وابتسم، لينفتح الباب في رفق

ورأها...

كان أول ما طالعه سيقان، لم يتعود إطلاقًا أن ينظر إلى أسفل امرأة قبل أعلاها، ولكن لو خرجت له تلك المرأة وهي ترتدي روبًا حريريًا على لانجيري مفتوح من الأسفل ليبدي سيقان مثل المرمر الأبيض لزم عليه التطلع.

صعدت عيناه لتصطدما بحاجزٍ بين جبلين من الأرانب البيضاء تبين أنهما صدرها النافر الذي أبى السكون بداخل ثيابها فخرج يستعرض فتنته.

كان آخر ما لمحه هو وجهها، فاتنة في الأربعين من عمرها تقريبًا، أصغر من أمه بعدة سنوات، ولكن شعرها الغجري ينسال على وجهها وكتفيها العاريين وكأنها فتاة في العشرين، وجنتاها ممتلئتان، شفتاها مثل حبات الكرز، وعلى وجهها ابتسامة تحمل رسائل غير عادية وغير بريئة بالتأكيد.

أمسكت بالباب وهي تقول له وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة:

- نعم، أي خدمة؟

نظر لها في شرود وقد ألجمه جمالها قبل أن يتنحنح قائلًا:

- احم، (ناهد حسين)؟

- أنا (نوني)..

- أهلاً وسهلاً، أنا أريد (ناهد حسين).

- (نوني) اسم التدليل، أنا هي التي تريدها.

إذًا هذه هي (ناهد حسين) تدعو نفسها "نوني" لا يدري هل أحَبَّ ما رأه أم كرهه، كرجلٍ له رغبات أحب بالطبع ما رآه ولكنه كابنٍ يبحث

عن أم محتملة فهذه آخر من ينبغي أن تكون أمه، هذه الأم التي تستحي من السير معها في الشارع أو أن يراها أصدقاؤك.

يذكر أنَّ أباه نهى أمه عن تبديل ملابسها أمام الأطفال منذ أن كان عمرهما خمس سنوات، لم يكن والده متزمتًا دينيًّا، ولكنه قال إن الأطفال يحتفظون بصور نمطية لأمهاتهم منذ الصغر تبقى معهم إلى الأبد حتى لو شاخوا، هناك من يتذكر أمه وهي تطبخ، وآخر يستدعي شكل أمه وهي تصلي، ولِذا لا يجوز أن يحتفظ الابن بصورة ذهنية لأمه وهي تبدل ملابسها أو وهي عارية.

لم يلبث كثيرًا في تأملاته، لم تستحِ هي منه، لم تستر شيئًا وكأنها تعرض عليه بضاعة للبيع، ود لو ينصرف ولكنه سيبدو مريبًا لو فعل، هو جاء من أجل مهمة محددة فقال لها:

- هل تسمحين بكلمة على انفراد؟

لاحت على شفتيها ابتسامة خبيثة وهي تتفحصه بنظرها قائلةً:

- طبعًا يا حبيبي، تفضل.

فتحت له الباب على مصراعيه وهو يدخل على استحياء، كان البيت مؤثَّثًا كأحسن ما يكون، هناك بصمات لأيد خبيرة وضعت لمساتها في كل ركن من ذلك المنزل، ربما هي لمهندس ديكور ماهر، اللون الأزرق والأبيض يغمر المكان، هناك ركن أخضر يبدو كحديقة داخل المنزل، دعته للجلوس في غرفة الاستقبال فلبَّى دعوتها في ترحاب وهو يتخذ مجلسه قريب منها.

وضعت ساقًا على الأخرى فبان معظم فخذيها وهي تلتقط صندوقًا من التبغ وتضع لفافة منه بين شفتيها وتنظر له وكأنما تدعوه أن يشعل لها السيجارة.

لم يكن مُدخِّنًا وبالتأكيد لا يحمل قداحة، لاحظ بنظره قداحة مميزة على المائدة عليها رسم عقرب، مدَّ يده ليشعلها ويقترب منها

ليساعدها مع سيجارتها، اشتم عطرها المميز، هذا عطر شرقي مثير، ترى هل تضعه دائمًا أم تخص به رجلاً بعينه، أحس أنه أقرب ما يكون إلى صدرها فاستحى وهو يعود مرتبكًا، ضحكت ثم سعلت وهي تنفث دخانها في وجهه قبل أن تقول:

- تحدث يا حبي، ما الذي لديك؟

تنحنح وهو ينظر إلى عينها مباشرة لئلا يصطدم بأي تضاريس أخرى قائلاً:

- اسمي (محمد حسام) الأمر أنني في رحلة بحث، أنا من مواليد الثاني عشر من يناير 2011، بالمركز الطبي الجديد، هل يبدو لك هذا التاريخ مألوفًا؟

رفعت حاجباها في بط مثير وهي تقول:

- ربما، هل حدث شيء مميز في ذلك اليوم غير ميلادك؟

قال لها مندهشًا:

- ألم تلدي طفلاً في ذلك اليوم؟

توقفت عن التدخين للحظة قبل أن تقول:

- نعم قمت بولادتي في ذلك اليوم، تذكرت، المرء لا يحتفظ بهكذا تواريخ.

رفع حاجبيه متعجبًا وهو يقول:

- لا تحفظين عيد ميلاد أطفالك؟

- أنجبت كثيرًا وأجهضت أكثر..

صمت "محمد" ولم يجرؤ على سؤالها عما دار بعقله قبل أن يستجمع شجاعته قائلاً:

- هل الطفل الذي أنجبته يوم الثاني عشر من يناير من ذلك العام حي يرزق؟

- لم ألد طفلا في ذلك اليوم..

- إذًا..؟

- لقد أنجبت طفلة، بنت، اسمها "مريم".

لم يدرِ "محمد" هل هو بحاجة لأكمال حديثه مع "نوني" أم لا، المستقبل تغير كليًا، هناك ابنة لهذه المرأة، وكانت ربما لتكون ابنة لأمه، ووالدته تحب البنات وكانت تود لو حظت بابنة، ولكن أمه كانت ستكتشف ذلك، فهي تعلم من السونار أن لديها ابنًا، ولكن ماذا لو كذبت السونار ومضت في حياتها؟ ماذا لو لم تكن تعرف نوع الجنين؟ كانت هذه الابنة لتكون ابنة "حسام" و"أماني"، وهو كان سيكون ابنها.

للمرة الثانية تكسب كفة أمه وأبيه الذين وجد معهما ولكن مهلاً، ما الذي يجعلها أمًا سيئة؟ هل هو منظرها وكيف تبدو من الخارج؟ هي في منزلها ولها أن ترتدي ما تشاء، ثانيًا هو لا يعرف هل فاجأها في وقت غير مناسب، هل فهم تصرفاتها خطأ، ربما هي طبيعتها نوعًا ما متحررة.

هي لا تبدو من النوع الذي يمتهن الرجال كمصدرٍ للرزق، راقية في مشيتها وضحكتها وكلامها، ربما تنظر له كفتى صغير لا تستحي منه ولذا تتكشف في ملابسها.

كان قد سافر مع والديه إلى بلاد كثيرة ودرس بمدارس أجنبية، ولذا لم يعد يستهجن منظر أي امرأة متكشفة، في داخله يعرف أن هذا خطأً ولكنه لا يستهجنه، كما أنه يعلم أنه حتى في الفضيلة نحن دعاة لا قضاة ولو على الإنسان أن يستكشف عيوبًا فعليه حمل مرآة وليس مجهر.

هنا كان القرار له إما أن يستكشف مزيدًا من الحقائق أم ينهي الأمر وينصرف ولكنه آثر البقاء ليسألها:

- هل لديك أبناء آخرون غيرها؟

- لدي ابن آخر في السادسة من عمره، هو بالمدرسة الآن، ولكن لمَ تسأل كل هذه الأسئلة، هل أنت من التعداد والإحصاء؟

- لا العفو، كل ما هنالك أن والدتي كانت تمزح معي بأنني ربما تبدلت أثناء ولادتي مع طفلٍ لسيدة تدعى "ناهد" كانت تلد في نفس اليوم في المستشفى، ولكن الأمر مزحة ليس إلا، فأنا أعرف أنها والدتي.

أخذت نفسًا عميقًا من سيجارتها وهي تقترب بجسمها قليلاً منه قائلة:

- أخشي أنني أرفض أن أكون أمًا لك..

نظر لها متعجبًا وهو يقول:

- لماذا؟

اقتربت أكثر وهي تضع يدها على ساقه قائلة:

- كل هذا العنفوان حرام أن يكون بيني وبينه حاجز البنوة..

إلى هنا و "محمد" كان يستطيع تفسير كل ما حدث ولكن هناك لقطات في حياة الإنسان لا يدري كيف يفسرها، في مشهد أول كان هو وهي يجلسان متجاورين ويدها على ساقه، في المشهد الآخر الذي يليه بلحظة كانت شفتاهما تتقابل في قُبلة فرنسية ملتهبة، لا يدري كيف انتقل بهما الحال من النقطة ألف إلى النقطة باء وكأنما سحرته بسحر ما وتحكمت هي بتلابيبه، مذاق فاها لذيذ يبعث على المزيد و...

- مجددًا يا أمي!

قاطعهما صوت أنثوي رفيع يصرخ وكأنه مارد خرج للتو من قمقم، لينتفض كلاهما في سرعة ويقف "محمد" ليواجه صاحبة الصوت، كانت فتاة في العشرين من عمرها، شعرها غجري أيضًا، أنفها دقيق، قصيرة القامة ولكن ملفوفة القوام، ملامحها تسر الناظرين، باختصار هي "نوني" نفسها لو كانت أصغر بعشرين عامًا، قدر أن هذه ابنتها "مريم" التي حدثته عنها، الفتاة التي وُلِدَت في نفس يوم

وساعة ومكان ولادته هنا أمامه، يا للأقدار، لو كانا في ظروفٍ أخرى ربما لتعانقا بحرارة، ولكن لا يظن بعدما رأته يقبِّل أمها بهذا الجموح ستكون له أي مشاعر جيدة.

لم يدرِ ماذا يقول أو يفعل، هل يغادر أم يبقى، ولكن "نوني" أنقذته من ذلك بأن صاحت في ابنتها"

- ما الذي جاء بك مبكرًا؟

- ألغوا محاضرة اليوم، كم من الوقت كنت تريدين منِّي الغياب، ساعة أخرى؟ يوم، شهر، سنة؟؟ أغيب عن حياتك نهائيًّا، مَن هذا؟ عشيق جديد؟ يبدو جيدًا، صيد ممتاز،كم كان عمر آخر واحد؟ أربع وعشرون؟ ! هذا يبدو أصغر بكثير..

- لا شأن لكِ بي، هذه حياتي، أنا لا أحاسبك فلا تحاسبيني.

بدا أن هناك شجار نساء يوشك على الاستمرار فانسل خارجا و(نوني) تجري وراءه تاركة ابنتها الغاضبة لتوقفه قائلة:

- هل سأراك مرة أخرى؟

نظر هو إلى "مريم" التي بادلته نظرة كراهية حارة ولم يجب وهو يفتح الباب للمغادرة ولكن "نوني" أمسكت بيده وهي تلتقط قلمًا من على منضدة وتقول له:

- أعطني رقم جوالك.

أعطاها رقمه في عجالة، وهي تبحث عن ورقة لتسجله وعندما لم تجد رفعت ساقها لتستند بها على مقعد بجوار الباب وتكتب الرقم على فخذها العاري.

كان المشهد مثيرًا، وشعر بمشاعر جامحة نحوها ولكنه سيطر على نفسه وانطلق يغادر بغير أن ينظر خلفه.

ما إن ارتمى في سيارته حتى انطلق بها وهو يفكر ما الذي حدث لتوه، لقد ذهب يبحث عن أمه، ووجد نفسه في بداية علاقة مُحرَّمة

مع امرأة عرفها للتو، تبًّا لهذه اللعوب، ليست سهلة، المرأة استدرجته بدون أن يشعر وكأنها تطلق أشعة إغواء من كل مكان بجسدها.

بالتأكيد لا يمكن أن تكون أمه

مسكينة ابنتها

ومسكين ابنها الصغير ذو الستة أعوام أعوام

إنها حتى لم تعرف اسمه، فكيف فكَّرت في أن تمنحه جسدها هكذا بعد خمس دقائق من اللقاء، هذه المرأة شيطانة جنس وليس له العودة لرؤيتها مرة أخرى.

ترى كيف كان سيتقبل أن تكون أمه، نعم هي تحيا حياة مرغدة ويبدو عليها مخايل النعمة والصحة، ربما تكون حتى حاصلة على درجة علمية رفيعة ومن عائلة راقية ولكنها عابرة سرير، تمارس الفجور مع الرجال بدون تمييز.

إنه لا يتصور زوجًا لأمه في الحلال غير أبيه بل إن أخاه "مالك" كان يغار على أمه من أبيه، فما باله بامرأة تتقلب بين أحضان الرجال هكذا!

تذكَّر عبارة حارس الأمن "ربنا يتوب علينا" الآن فهم كل شيء، هي معروفة بسمعة ليست جيدة ولهذا شك الرجل به.

كان في أيامه في الجامعة هناك فتاة تدعى "نسرين" من ذلك النمط، لم تكن تشكو من قلة مال أو عائلة ولكنها كانت تقدم خدمات مجانية للجميع حتى إنهم أطلقوا عليها "نسرين صديقة الطلبة".

تساءل في نفسه هل الأم التي تمارس علاقة محرَّمة تظل تستحق أن يطلق عليها أمًّا، ماذا لو كانت لا تُقصِّر في واجبات الأمومة فتسهر على بيتها واحتياجات أطفالها؟ ماذا لو كانت مطلَّقة أو أرملة وتشكو من عدم تلبية حاجاتها الجسدية؟

في البلاد الغربية هذا ممكن، والمجتمع ينظر للوضع بشكل عادي ولربما انتقل الرجل للعيش مع خليلته وأولادها تقبَّلوا الأمر بشكل

عادي، بل إن بعضهم ينجب وهو على هذا الحال ولكنه لا يتقبل الفكرة بتاتًا لا بعقله ولا بقلبه.

من واجبات الأمومة أن تجنب الأم على أولادها رؤية أو سماع ما يكرهونه، فما بالهم برجل غريب يمتطي ظهر أمهم من غير سند شرعي.

ضايقه الخاطر وهو يتساءل: ترى ما الذي جرَّه لها؟ هل هو عطرها؟ حور عينيها؟ سمع من صديق له مجرب أن الشاب أو المراهق يميل إلى المرأة التي هي أكبر منه سنًّا. لاعتقاده بذلك أنه بلغ أعلى مراتب الرجولة، فهي امرأة كاملة الأنوثة تُسلِّم قلاعها لشاب حديث العهد بالذكورة ليدك حصونها ويعتلي أمواجها ويسطر على صفحة جسدها اسمه بحروف الرغبة المستعرة.

لم يكن قديسًا ولا نَبيًّا، هو ليس سيدنا "يوسف" حتى يهرب منها، هو هربَ إليها، ربما هي عقدة (أوديب)، ربما شيء آخر حار في تفسيره، ولكنه لا ينكر أنه شعر بالحرج الشديد مع حضور الفتاة والتي أنقذته من مخالب أمها.

عاد إلى حيث ترك "مالك" كان يجلس على شاطئ البحر كما تركه، وقد رفع قميصه على رأسه ليحتمي من الشمس، هتف به:

- تعال يا أخي..

اقترب منه مالك وهو يتفرس فيه قائلاً:

- حضرتك تعرفني؟

- اصعد للسيارة بلا جدال.

- تتركني في عز الشمس بخدعة دنيئة وأنتظر هنا ساعة ثم تقول لي هذا اصعد، لا يا حبيبي لن أصعد.

- هذه كانت خطة السيد الوالد، اذهب وعاتبه.

هز "مالك" رأسه مثل طفل غاضب وهو يقول محدثًا نفسه:

- ماشي يا "حسام" حسابك معي.

في الطريق سأله "مالك" ما الذي وجده، وخيرًا أم شرًا، فلم يجبه واكتفى بالصمت، قبل أن ينظر له متفوهًا بعبارة واحدة:

- وجدت أن أمك أعظم امرأة في العالم.

- أعلم هذا ،لم تأتِ بجديد، احكِ لي تفاصيل.

- ما حدث لا يحكي، او على الأقل ليس وقته، انسَ الموضوع.

عاد الأخوان إلى المنزل وكانت الأم باستقبالهما كالعادة، لم يتفوه "محمد" بأي كلمة وأمه تبتسم ابتسامة ظافرة قائلة:

- أخبرني، سبع أم ضبع؟

- لا سبع ولا ضبع.

-إذًا ماذا؟ قطة؟

- قطة شيرازية من النوع الفاخر.

- حقيقة، أخبرني ماذا وجدت؟

- لا شيء يا أمي، هل يمكننا تناول الغداء الآن فأنا أتضور جوعًا..

كان الفضول يقتلها ولكنها قامت لإعداد الغداء وبينما هما ينتظران إذ دق جرس الباب في حدة، هرعت أمه لتفتح وهي تضع حجابًا على رأسها، قبل أن تعود لغرفة المعيشة قائلة:

- "محمد"، هناك امرأة تريدك على الباب.

- مَن؟

- لم تقل لي، قالت إنها تريدك في أمرٍ هامٍ.

شعر "محمد" بالريبة وهو يسرع إلى الباب محاولاً تَخيُّل مَن يمكن أن تكون المرأة المجهولة التي تقصده، وما إن وصل حتى وجدها هناك.

أخر من كان يتوقع حضوره

(ناهد عوض)

أم "علي"

الفصل السابع

(التيس)

هالته رؤية أم "علي" الآن وفي بيته، كيف عرفت مكانه وما الذي جاء بها؟ لقد ألقاها وراء ظهره ونسيها تمامًا، كانت المرأة محمرة الوجه ومتعرقة الجبهة وكأنها خرجت للتو من سباق للعدو، عيناها محمرتان ويبدو من تهدل جفنيها أنها لم تنم جيدًا، أهدابها متهدلة من بكاء سابق غزير، قال لها في دهشة:

- أم "علي" ما الذي جاء بك؟

انفجرت باكية وهي تقول:

- لقد طلقني زوجي..

كان منظر بكائها على باب بيته غريبًا، أشار لها أن تدخل وأمه تراقبهما في صمتٍ، يعرف هدوء أمه الشهير الذي يسبق العاصفة، تبعته أم "علي" إلى غرفة المعيشة حيث جلست تكمل وصلتها في البكاء، أحضر لها صندوقًا من المناديل الورقية وهو يقول:

- ما الجديد في طلاقك، ألم تقولي إن المعلم "إسماعيل" يطلقك كل يومين؟

- المرة هذه هي الأخيرة.

- ولماذا؟

- أنت السبب.

- أنا، أنا عرفتكم لمدة نصف ساعة فقط، وانتهت بي في المستشفى وكنت سأموت، وقررت ألا أدخل حياتكم مرة أخرى، فكيف أكون السبب.

- فتحت بابًا مغلقًا، دينك وطلاقك ولا أدري ماذا، وشككتني في الشيخ البحباحاني، أقصد الشيخ (الملواني) ونصحتني أن أذهب لشيخ آخر، وفعلاً ألححت على المعلم "إسماعيل" أن يذهب لشيخ آخر، قال لنا أنتم تعيشون مع بعضكما بالحرام منذ خمس سنوات على الأقل.

- كم مرة طلقك زوجك أو كسرت أمره حينما أقسم بالطلاق؟

- لا أعد وراءه، ربما مائة مرة.

- بالتأكيد أنتِ مطلقة الآن ،حسنًا ماذا أفعل لك الآن؟ هذه حياتك صاحت فيه بشكلٍ مخيفٍ:

- نعم نعم، تخرب عليَّ وتنصحني وتتركني الآن؟! لقد طردني وابني في الشارع، ابني مرمي عند أصحابه، فأين أذهب أنا؟ يجب أن تحل لي مشكلتي كما خلقتها.

هم "محمد" بإجابتها ولكنه شعر بأمه تناديه، انسحب بخفة إليها وهي تسأله:

- هل هذه هي (ناهد)؟

أوما برأسه علامة الإيجاب فاردفت أمه:

- تبدو سيدة لا يأتي من ورائها غير المشاكل، اصرفها بهدوء لا أريدها في بيتي.

عاد "محمد" إلى أم "علي" قائلاً:

- حسنًا، لو مشكلتك الآن في سكن، يمكنني أن أستأجر لكم شقة لمدة شهر حتى تدبروا أموركم.

- نعم وتخلع أنت منها مثل الشعرة من العجين، لا أنا سأظل هنا ولن أغادر حتى تحل لي مشكلتي.

هم "محمد" بطردها ولكنها سبقته بالبكاء، فأسقط في يده وهو يسرع لخارج غرفة المعيشة حيث نظرت له أمه التي جلست غير بعيد وهي تبرد أظافرها في رسالة موحية أن عليه تصفية الأمر لوحده.

ابتسم لأمه في براءة قائلاً:

- أمي نبع الحنان، أم "علي" ستمكث هنا لحين عودتي من الخارج.

لم توافق أمه بسهولة، ولكنه شرح لها الموقف واستنهض فيها روح الكرم والمروءة حتى وافقت على مضض، وبدَّل هو ملابسه على عجل قبل أن يغادر ليبحث عن حل لهذه المشكلة التي لم تكن بحسبانه.

أثناء غيابه دخلت أمه على أم "علي" التي كفكفت دمعها ووضعت يدها تحت خدها، تبادلت السيدتان نظرات جامدة قبل أن تقول "أماني" في غيظٍ:

- شرفتي..

- تسلمين يا أختي، هل أطمع في بعض الماء؟

أحضرت لها قدحًا من الماء وناولتها أياه فشربته على دفعة واحدة وهي تقول لها:

- شكرا لك، ابنك هذا طيب وأصيل، هل فكرتِ في تبادل الأبناء من قبل؟

قاد "محمد" سيارته حتى وصل إلى شقة المعلم "إسماعيل" لم يكن يدري كيف يحل الأمر، ولكنه حاول أن يقنع الرجل بإعادة زوجته إلى عصمته مرة أخرى، طرقَ الباب عدة مرات ولم يجد مجيبًا فبحث عنه على المقهى الشعبي، وجده هناك يدخن النرجيلة في سكون وكأن سلام العالم كله قد تجمَّع في قلبه.

ألقى عليه السلام فنظر له الرجل في حنقٍ ولم يرد، فألقى عليه السلام مرة أخرى، رمى الرجل بطرف أنبوب النرجيلة في ضيق وهو يقول:

- وعليكم السلام يا أستاذ، أؤمرني، أي خدمة؟

- قلبك طيب يا معلم، حرمكم المصون عندنا وحالتها صعبة جدًّا تصعب على الكافر، هل تهون عليك عشرة السنين؟ ألا تذكر لها لحظات حلوة؟

- تذهب للجحيم هي وابنها، خمسة عشر عامًا أطعمهما وأسقيهما وأكسيهما ولا أجد منهما سوى الهم.

- الطيب أحسن والعشرة لا تهون سوى على أبناء الحرام.

- ماذا تقصد؟!

تراجع "محمد" وقد خشي أن يغضب الرجل قائلاً:

- أقصد كل خير ونتصالح وتعود المياة لمجاريها.

- لا يجوز يا أستاذ، لا يجوز، الشيخ قال هكذا.

- تردها لعصمتك يا معلم، عادي.

- هل أخبرتك كم مرة طلقتها؟

- أكثر من مائة مرة.

- إذًا الطلاق ثلاث يا أستاذ، بعد المرة الثالثة هي أصبحت محرمة عليَّ شرعًا.

- أليس هناك حل لذلك؟ حرام ليس لها مكان.

- أنا أريد عودتها، ولكن هناك حل واحد وحيد ليس له ثانٍ.

- ما هو؟

- محلل.

- حسنًا نأتي بمحلل، سهلة.

- سهلة عليك، صعبة عليَّ أنا، أنا لن أجري أبحث عن تيس مستعار لزوجتي حتى ينكحها.

- ما التيس المستعار هذا؟

- المحلل تيس مستعار.

- لو هذا ما سيصلح الأمر نبحث عنه ونعطيه نقودًا لو أحب.

- يا أخي أنت لست من عائلتنا، تدخل حرف النون في كلامنا بأي مناسبة، نأتي ونبحث ونعمل ونسوي، أنت ائتِ لي بمحلل يرضى بذلك وليس لدي مانع ولحين ذلك ستجدني هنا على هذا المقهى.

أدرك "محمد" أنه قد وصل إلى طريق مسدود، من أين له أن يجد محللاً، قام من مكانه قبل أن ينظر لكل الرجال الجالسين على المقهى صائحًا بأعلي صوت:

- هل هناك من يقبل أن يكون محللاً لزوجة المعلم "إسماعيل"؟

قام "إسماعيل" منتفضا وهو يصرخ فيه:

- ستدلل عليها هنا في منطقتي وأمامي؟! اغرب عن هنا .

***

غادره "محمد" وعقله يفكر، لا بُدَّ له من البحث عن حل وعن محلل، السيدة كانت تعيش في الحرام خمس سنوات وفور أن أرشدها للحلال صار هو سبب المشكلة، عجبي على ناس هذه الأيام.

لا يدري لماذا تذكَّر قصة الناس الذين تعودوا على الظلام فلما أنار لهم الضوء أصابهم بالعمى المؤقت فلعنوه، هو أنار لها الطريق فلم تحتمل الضوء ولعنته.

استدعت ذاكرته كل أصدقائه من أيام الدراسة والجيرة، من منهم يا ترى قد يقبل أن يكون محللاً لها، وردت على عقله عدة أسماء، أخرج هاتفه من جيبه وهو يبدأ الاتصال في سرعة بهم:

- السلام عليكم يا (أبو درش) حبيبك "محمد" هنا، أقصدك في مصلحة، شيء ستحبه، زواج لمدة يوم واحد فقط، لا ليس إصلاح خطأ، ليس هناك من فتاة وعذرية لو هذا ما يهمك، هي امرأة مُطلَّقة نريد أن نعيدها لزوجها، ماذا؟ لا ينفع، حسنًا شكرًا.

أغلق الهاتف وهو يطلب رقمًا آخر ويجري حوارًا آخر:

- حبيبي يا (زكريا) عاش من سمع منك، لدي لك هدية.... ماذا؟ هداياي دائمًا لا تعجبك.. هذه المرة الهدية امرأة.؟.. لا ليست صيدًا من الشارع وليس لدي شقة، هي مطلقة نريد محللًا لها.. كم عمرها.. لا أعرف، أظن أنها أربعة وأربعين،.. ماذا أخلي أم أربعة وأربعين لي.. شكرًا يا (زكريا).. سلام

لم تعد في جعبته أسماء كثيرة جرب آخر اسم وهو يقول:

- مساء الخير يا (نجم النجوم) ألا تذكرني "محمد" من الجامعة، الله يسلمك، لدي خدمة منك، زواج لمدة يوم واحد، امرأة مطلقة نريد تزويجها لمحلل حتى تعود لزوجها.. لا ليست أمي يا مهزأ، احترم نفسك.. لا تريد، شكرًا، اذهب إلى الجحيم.

كان يجري المكالمات وهو يقود سيارته في سرعة عائدًا للمنزل، لا يريد أن يترك أمه وأم "علي" معًا فربما تتجادلان أو تتشاجران.

في الطريق جاءته مكالمة من رقم غريب، رفع السماعة إلى أذنه وهو يقول:

- (محمد الخطيب) مرحبًا.

- أهلاً يا حبي.

لم يحنَج إلى وقت لتمييز صوتها، إنها "نوني" المرأة اللعوب التي كانت ستصبح أمًا له، زفر في ضيق وهو يقول:

- أهلاً مدام "نوني"..

- لا داعي لكلمة مدام، نادِني "نوني" فقط، نحن لسنا أغرابًا عن بعضنا الآن.

- خيرًا، ماذا تريدين؟

- أريد أن أراك.

- لا أدري، أنا منشغل كما أنني أقود سيارتي حاليًا ولا أستطيع الاستمرار في المكالمة.

- تعالَ مرة أخرى إلى البيت.

- بيتك لا، مستحيل، يكفي ما حدث.

- إذًا سآتي إلى بيتك..

- بيتي؟ لا يمكن، أنا أقيم مع عائلتي..

- عندك مكان آخر، شقة صديق لك مثلاً.

- "نوني"، لماذا كل تفكيرك ينحصر في شقق، لماذا لا نتقابل مثل أي اثنين عاديين في مقهى أو مطعم.

- حسنًا يا حبوب، قابلني على مقهى (لوباستيك) بعد ساعة ممكن؟

- حسنًا ،ممكن، هل هناك موضوع ما؟

- آه طبعًا، موضوع كبير ومهم.

- حسنًا بعد ساعة على مقهى (لوباستيك).

أنهي المكالمة وهو يحادث نفسه قائلاً:

- ما الذي جررته على نفسك يا ابن "أماني" غابة النساء التي دخلتها بقدميك هذه ستخرب بيتك.

وصل إلى البيت وهو يدخل متسللًا ليستطلع الأمر، جيد ليس هناك صياح أو أشلاء بشرية تتطاير، دلف لغرفة المعيشة، كانت أم "علي" تجلس وهي تتسلى ببعض حبات العنب تلوكها في بطء وهي تشاهد التلفاز بينما أمه تنظر لها ويدها على خدها.

رأته أمه فصاحت فيه:

- كل هذا تأخير، هل حللت الموضوع؟

جلس على أقرب مقعد له وهو ينظر لأمّ "علي" التي تركت ما بيدها وانتبهت له، لم يدرِ كيف يصوغ الأمر ففكر قليلاً قبل أن يقول:

- أم "علي" أنا قابلت المعلم "إسماعيل" وهو ليس لديه مانع في عودتك إلى عصمته مرة أخرى، ولكن هناك مشكلة بسيطة، يجب أن تتزوجي رجلاً آخر قبل العودة له، محلل يعني، حتى تحلي له مرة أخرى.

قالت له أم "علي" بهدوءٍ:

- لا مانع، لا يوجد لدي مشكلة في الزواج برجل آخر حتى ولو للأبد.

- ليس للأبد، حتى لو لليلة واحدة، هذه ليست هي المشكلة.

- إذًا ما المشكلة؟

- المشكلة أنه لا يوجد محلل لدينا، حاولت إيجاد شخصٍ ما يقوم بهذه المهمة ولم أجد أحدًا حتى بالفلوس، فلو لديك أنت أحدٌ ما ربما يمكنك أن تطلبي منه.

نهضت أم "علي" من مكانها بعصبية وهي تقول:

- لو لم تجد أحدًا، أنا لدي بالطبع، الناس تقول، من كسر شيئًا فعليه إصلاحه، كل هذا خطؤك منذ البداية، إذًا ستكون أنت المُحلِّل، يجب عليك أن تتزوجني.

هنا فاجئها صوت من خلفها يقول:

- يتزوج من يا امرأة يا مجنونة، هل جننت، ابني أنا يتزوجك أنتِ؟

لدهشته لم يصدر هذا الكلام من أمه كما كان يتوقع ولكنه صدر من أبيه الذي أتى فجأة وسمع حوارهما ليتخلى عن رصانته المعهودة ويكيل لها ثقيل الكلام، نظرت له أم "علي" وهي تغالب دموعها كالمعتاد:

- يعني يرضيك يا أستاذ، أنا أكون بلا بيت ولا رجل، هي ليلة يتزوجني ويطلقني في الصباح، ولن يدري أحد بذلك.

صاح بها "حسام" بحزمٍ:

- نساعدك بالنقود ممكن، حتى بالبحث عن زوج، لكن ابني يكتب على الورق أنَّ أول حظه عروس اسمها أم "علي" هذا سيدمره، ألا تعلمين كم تعبنا في ترتيب حياته بهذا الشكل الرائع وتخربينها أنت في لحظات.

صمتت أم "علي" للحظة قبل أن تقول:

- حسنًا يا أستاذ، ليخرج "محمد" خارج الموضوع، تزوجني أنت.

هنا هبت الأم واقفة وهي تقول:

- ما هذا الجنون، أنا أصمت على حماقاتك منذ الصباح، مرة تبادُل أبناء، ومرة تريدين أن تتزوجي ابني، والآن تعرضين الزواج على زوجي أمامي، لا كله إلا "حسام".

قام "محمد" ليهدأ من ثائرة أبيه وأمه ويفرق بينهما وبين أم "علي" المعتوهة وقد رأى أن الجو الملتهب هذا لن يفيد أحدًا وهو يقول مصفيًا التوتر فيما بينهم:

- كل مشكلة ولها حل إن شاء الله، لا زال أمامنا وقت. سأنزل الآن وسأعود آخر النهار، ولحين ذلك تواصوا خيرًا بأم (علي).

همَّ والداه بالاعتراض ولكنه لم يترك لهما فرصة إذ انصرف ليلحق بموعده مع "نوني" الذي أوشك على البدء.

***

لا يدري لماذا حرص على الالتزام بهذا الموعد، هل فضوله غلبه ليعرف ما الأمر الهام الذي تريده فيه، أم أنها قد جذبته بشكلٍ ما فأحبَّ أن يراها مجددًا، أم أنه يريد أن ينهي هذه الرحلة المتعبة التي بدأها في البحث عن ذاته.

وصل إلى مقهى (لوباستيك) يعرف أن الاسم فرنسي ويعني البطيخ الأخضر، اسم غريب لمقهى، ولكن من يهتم؟ طالما ثقافة الشعب ليست فرنسية.

جال بعينه خلال الموائد، كانت تجلس هناك ترتدي بنطالاً بلون الجوز، مع قميص وجاكت من نفس اللون، تبدو فاتنة في هذا الزي وقد عكصت شعرها خلف ظهرها كذيل حصان، هذه المرأة حصان، ولذا لا بُدَّ أن يكون لها ذيل.

ابتسمت حينما رأته كانت قد سبقت وطلبت عصيرًا طازجًا، تعمدت أن تثيره وهي تنحني لترتشف رشفة من العصير عن طريق المصاصة بشكل موحي بالشبق.

آه من ناهد آه

هكذا ردد قلبه، جلس أمامها وهو يعقد كفيه قائلاً:

- خيرًا يا "نوني"؟

- ألا يوجد مرحبًا؟.. كيف حالك؟ أفتقدك.

- لقد تركتك منذ الصباح فقط.

- احسست كأنها دهرٌ منذ ذهبت، أخذت قلبي معك.

تظاهر بالبحث داخل ثيابه وهو يقول:

- لا والله ما أخذت شيئًا... حتى فتشيني.

مدت يدها نحو صدره وكأنها ستفتشه فعلاً فتراجع، ضحكت ساخرة وهي تقول:

- حقيقة، ألم تشتَق إليَّ؟

قطع حبل إغوائها قائلاً:

- ما الأمر الهام الذي تريدينني فيه؟

- أريدك أنت.

- أنا لست للبيع.

- ومن قال إنني أريد شراءك، أنا سأستأجرك، سأستعيرك، بضعة أيام، ما رأيك أن نذهب إلى (شرم الشيخ) سويًّا؟

- لا أحب (شرم الشيخ).

- حسنًا، ماذا عن (طابا)، (دهب) (نويبع)، أي مكان معًا.

- ثم؟

- ثم سأشرح لك الجهاز التناسلي لدى المرأة..

- أنت قليلة الأدب.

- أعرف، ألا تحب ذلك؟

كاد ينهار أمام إصرارها، غير أنه فوجئ بـ "مريم" تظهر فجأة أمامهما وهي تصيح بغضب هادر:

- الظاهر أن الموضوع كبير هذه المرة.

انتفض "محمد" وكأنما أُلقِي عليه دلو من ماء بارد وهو ينهض قائلًا:

- أنسة "مريم" اسمحي لي أن أشرح لك.

- لا تشرح لي ولا تكلمني، كلكم مثل الكلاب المسعورة، تستغلون ضعف هذه المرأة ولا يهتم أحد بشعور أبنائها ولا بمكانتها الاجتماعية.

- انتظري، هي فقط خمس دقائق وسأشرح لك.

أسرعت "نوني" تقف لتمسك به وكأنما تحتضنه قائلة:

- اتركها وركز معي، ماذا كنا نقول؟

قال في غير وعي منه:

- كنا نتكلم عن الجهاز التناسلي للمرأة، أقصد.. لا عليك، هل يمكنك أن تتركيني و "مريم" قليلاً وحدنا حتى أوضح لها بعض الأمور.

- وماذا عني أنا، هل ستتركني هكذا؟

- سنكمل حديثنا بعد ذلك.

- حسنًا، أوصلني إلى المنزل على الأقل.

خشي "محمد" أن يوصلها إلى منزلها فيتكرر ما حدث مسبقًا، وحار ماذا يفعل معها لولا أن ظهر ملاكه الحارس "مالك" كان يمر مع بعض أصحابه خارج المقهى، فأسرع "محمد" يطرق الزجاج حتى

يجتذب انتباهه، نظر له "مالك" وتطلع من خلف الزجاج إلى "نوني" قبل أن يطلق صفيرا عاليًا، ويسرع للداخل بلهفة.

أسرع "مالك" يلقي التحية على الاثنين ويحاول مصافحة "مريم" التي لم تكترث ليده الممدودة قبل أن يقول له "محمد":

- ما الذي تفعله هنا؟

- كنت أتمشى مع بعض أصدقائي، البيت محتقن اليوم كما ترى.

- حسنا، خذ مدام "ناهد" وأوصلها إلى بيتها في سيارتي.

أمسكت "نوني" بذراعه وقد شعرت أنه يتملص منها قائلة:

- أنا لدي سيارة ولكن لا رغبة لي بالعودة لوحدي، أقصد أن أقود الآن.

مد يده يدفع "مالك" أمامها وسط انتظار "مريم" في غير صبر وهو يقول:

- خذي هذا البطل معك، هو سيقود السيارة لك حتى البيت.

ابتسم "مالك" وهو يغادر مع "،وني" المقهى ويجلس "محمد" مع "مريم" ليتحدثا.

ألقت "نوني" مفاتيح السيارة إلى "مالك" في الهواء فالتقطها في خفة، وهو يجلس خلف المقود في فرح، جلست إلى جواره وهي تتأمله في إعجاب قبل أن يقول لها وهو يدير المحرك:

- هل ستدعينني أقود السيارة حقيقة.

- حبي، يمكنك أن تقود السيارة وصاحبة السيارة لو أردت.

أدار "مالك" المحرك وانطلق سعيدًا على إثر كلماتها، بينما بالمقهى جلست "مريم" في عصبية تنظر إلى محمد وكأنما تسبر أغواره قبل أن تقول:

- كم تأخذ وتترك أمي لحالها؟

أجابها "محمد" في هدوءٍ:

- أنت مخطئة بشأني يا أنسة "مريم" أنا لست طامع في أمك وما رأيتِه في شقة (سموحة) كان زلة صغيرة لن تتكرر، ليس بيني وبينها شيء.

- إذًا لماذا كنت معها هناك ثم هنا؟

- لن تصدقي لو قلت لك لأن الحقيقة أغرب من الخيال.

- قل ما لديك ودع التصديق أو عدم التصديق لي.

- كنت أبحث عن مستقبلي المحتمَل.

- أنت تمزح، اليس كذلك؟

- لا والله، أنا مواليد الثاني عشر من يناير 2011، في المركز الطبي الجديد، نفس تاريخ ومكان ميلادك.

هزت رأسها في حيرة وهي تقول:

- ما الذي يعنيه هذا؟

- كانت أمي تمزح بخصوص تبادل مع طفل لامرأةٍ تدعى "ناهد" وأمك واحدة من ثلاث نساء باسم "ناهد" كن هناك ذلك اليوم، فأحببت أن أرى شكل حياتي لو كنت ابنًا لأيٍّ من الثلاثة.

- القصة صعبة التصديق، هل تحب أن تعرف شكل حياتك بالفعل لو كنت مكاني؟

- بالطبع، لهذا أنا هنا.

- اسمع يا سيدي، كنت لتكون ابنًا لعائلة من وسط ميسور الحال، ومرموقين اجتماعيا، الأب أستاذ جامعي شهير ولكنه كبير في السن، تجاوز الستين، يكبر زوجته الشابة الساذجة بثلاثين عامًا تقريبًا، كان يعاملها بصرامة شديدة مما سبَّب لها اكتئابات نفسية حادة، ما إن شمَّت نفسَها بعد وفاته حتى انطلقت تنفث عن مركبات النقص والعقد التي لديها، تقدَّم لها رجال بالغون مرموقون ولكنها لسبب نفسي ما تحب المراهقين والشباب حديثي السن، أتصدق أنها

تزوجت مرتين عرفيًّا من شباب في سن الثالثة والعشرين، طبعًا غير العلاقات غير الشرعية، وكل ما يحبه قلبك، مكالمات بعد منتصف الليل، ترسل لهم صورًا خليعة على الواتس أب، هناك شاب نشر صورها كلها على موقع (البينجو) من قبل بعد أن ابتزها، الساذجة تكتب لهم خطابات حب مراهقة، تهرب مع الشاب منهم إلى أي منتجع ليقضيا أيامًا هناك، وتسجله على أنه ابنها هناك، هل يناسبك هذا كمستقبل أم تريد أن أزيد لك في الكلام؟

- لا، يكفي..

لم تكترث "مريم" لعبارته وهي تكمل:

- ربما تود سماع المزيد، السيدة المحترمة احتالت على خطيب ابنتها، زميلي بالجامعة، وجدتُه عاريًا في فراشها إلا من ورق التوت، تخيل، هذا ناهيك عن المبالغ الطائلة التي يأخذونها منها، سنفلس قريبًا بسبب أمثالك.

بدون وعيٍ منه أمسك "محمد" يد "مريم" وهو يقول لها:

- كفى يا "مريم" أُقدِّر الآن ما تمرين به وأعتذر عما حدث، لنفتح صفحة جديدة لست أنا بها.

وضعت "مريم" وجهها بين كفيها وهي تنشج بالبكاء قائلة:

- وما الفائدة؟ كل يوم هناك وغد جديد يدخل حياتها.

شعر "محمد" بالإشفاق عليها، مد يده يمسح رأسها وهو يتلفت حوله ليستطلع هل الناس ينظرون لهما أم لا وهو يقول لها:

- كل شيء سيصبح على ما يرام، لو الأمر يحتاج مساعدتي سأساعدك في ذلك.

رفعت وجهها وهي نصف دامعة لتقول:

- كيف ستساعدني؟

- لا أعلم، ولكني سأفكر في الأمر، لا تذرفي الدموع في غير محلها.

- أحاول أن أبقى صامدة لأجل أخي الصغير، المسكين لا يدري ما الذي يجري حوله.

مدَّ "محمد" يده لها بمنديل ورقي فمسحت عينيها وهو يقول:

- هل قلت إن أمك مهووسة بالشباب الصغار؟

- نعم، إنها تعوض عقدة زواجها من أبي وهو أكبر منها.

- إذًا اؤذني لي الآن فلا بُدَّ أن أنقذ أخي "مالك" منها.

قال كلمته وهو يغادر المائدة تاركًا "مريم" وحدها تنتظر..

***

حاول "محمد" الاتصال على "مالك" كثيرا في طريقه ولكنه لم يجب على اتصالاته، أتت إلى عقله تخيلات سيئة كثيرة عما يمكن أن يكون يحدث بين أخيه وبين "نوني" الآن، أهونها أنها ترتدي بذلة رقص شرقية وترقص له على أنغام (تشك شاك شوك) في الشقة.

فكر في العروج على شقتها لتفقد الأمر ولكنه تذكَّر موضوع أم "علي" التي تركها بالمنزل، لا يدري لماذا فتح على نفسه كل هذا الأبواب، كان يفترض بالأمر أن يكون رحلة عادية مسلية بلا آثار جانبية وها هو ينتهي مع فيض من المشاكل العسيرة.

قرر العودة إلى المنزل عله يجد "مالك" هناك، وفي الطريق بحث عن حلٍّ لمشكلة أم "علي" هو يشعر بالمسئولية نحوها، بالطبع يستطيع أن يطردها ولكن تربيته لن تسمح له بذلك، هي لا تريد مالًا ولا تبتزه، هي تريد فقط العودة لحياتها القديمة البائسة.

في الطريق أجرى عدة اتصالات بآخرين يعرفهم، وكانت النتيجة سلبية، كذلك قبل أن يهتدي إلى قرار ما لينهي هذا الأمر برمته، ما إن دلف إلى المنزل حتى رأى والده يقف أمامه عصبيًّا وهو يقول:

- ألا يكفي هذا! أريد هدوءًا بالمنزل، المرأة أتت بولدها هنا ليقيم معها حتى حل المشكلة.

- "علي"!

- نعم ومَن غيره، هل رأيته، بلطجي صغير، أخشى أن يفرض علينا إتاوة داخل المنزل، أنْهِ هذا الموضوع حالاً.

دخل لغرفة المعيشة كانت أم "علي" تجلس وبجوارها ابنها الذي مدَّ قدميه على المنضدة وهما يشاهدان التلفاز بلا اكتراث:

أتت أمه مسرعة لتستطلع هل وجد محللاً أم لا، وكذلك جلس أبوه قرب الباب ينتظر منه جوابًا.

العيون كلها معلقة به، وهو يجب عليه أن يجد حلًّا وبسرعة، تنهد قبل أن ينظر إلى أم "علي" قائلاً:

- أم "علي"، أنا سأتزوجك.

الفصل الثامن

(زواجان ولطم على الخدود)

هل سمعت صوت الطائرات الأمريكية وهي تدك (بغداد)؟ أو هل سمعت وقع انفجار القنبلة الذَّرية على مدينة (نجازاكي)؟ إن لم تستمع لكليهما فهما أقرب مثال لصوت السيدة "أماني" وهي تصيح على ابنها "محمد" حينما اتخذ قراره بالزواج من أم "علي".

حاول "محمد" تهدئتها وأن يشرح لها بأن هذا هو الحل الوحيد حتى تعود الأمور لطبيعتها وأنه يفعل خيرًا كما ربته أن يفعل دائمًا، وأن الأمر حِبرٌ على ورق ولن يحدث حقيقةً ولكن والده زاد الطين بلة حينما تنحنح قائلًا:

- تصحيح لمعلوماتك يا "محمد" هذا الزواج يقع باطلاً لو كان صوريًّا، لابد أن تدخل بها.

قال كلمته الأخيرة بطريقة (عادل إمام) الشهيرة فلطمت "أماني" وابتسمت أم "علي" في خبثٍ خَجولٍ، العجيب أن "علي" نفسه لم يحرك ساكنًا وتابع التلفاز في هدوءٍ وكأنهم يحلون مشاكل الروهينجا في (ميانمار).

هتفت "أماني" في هيسترية:

- لا يمكن، على جثتي، هذا الزواج لا يجب أن يتم.

- أمي، اسمعيني، هي ليلة وتَمُرّ.

- بذمتك أنت يأتيك نفس أن تنام مع هذه؟ الا تراها، أنا كنت لأزوجك (روميساء) أحسن أو أرميك للقطط تأكلك على أن تتزوج هذه.

قاطعتها أم "علي" وهي تقول في غضبٍ:

- وحدي الله يا أم "محمد" هل تريني معاقة أم كفيفة أمامك؟ هي ليلة وتمر كما قال لك.

نظرت لها "أماني" ساخطة وهي تقول:

- هل ترى؟ تدعوني أم "محمد" والبقية تأتي.

حاول "محمد" شرح الأمر لها بطريقة أخرى ولكن شعروا بباب الشقة ينفتح وصوت "مالك" يأتي من بعيدٍ وهو يحادث شخصا ما مجهول قائلًا:

- تفضلي، تفضلي.

كان هذا صوت "مالك" وهو يدعو أحدًا ما، على الأغلب أنثى للدخول، خرج أبوه ليستطلع الأمر قبل أن يتدلى لسانه خارج فمه في ذهول.

كان "مالك" بصحبة فاتنة في الأربعين وقد تأبطت ذراعه في وضع حميمي غريب وقد أحاط كتفها بذراعه بادره "حسام" قائلاً في دهشة:

- من هذه يا "مالك"؟

اقتربت السيدة من "حسام" وهي تمد يدها مصافحة:

- أنا "نوني" عروسة "مالك"..

تراجع "حسام" للخلف مصعوقًا وهو يصيح:

- تعالي أغيثيني يا "أماني"

تركت "أماني" الشجار الذي بيديها وهي تخرج بسرعة إلى غرفة الاستقبال قائلة:

- ما الذي حدث؟

- "مالك" ابننا الصغير، ابن الأمس، تزوج، وانظري مَن؟ هذه هي زوجته.

نظرت "أماني" في غير تصديق في الاثنين و"مالك" صامتٌ لا يجيب وإنما يتطلع بإعجابٍ إلى عروسه المتصابية "نوني" التي مدت يدها تسلم على "أماني" قائلة:

- أنا "نوني" يا ماما..

فوجئوا بـ "أماني" تقول:

- أنا بالتأكيد أحلم، لا هذا كابوس، لا يمكن أن يكون حقيقة.

لم تتم عبارتها إلا وسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

***

حينما أفاقت "أماني" بعدها كانت تتمنى أن تكون نائمة في سريرها وأن الأمور عادية وكل هذا حلم ثقيل وستستيقظ بعد نوم هانئ لتعد قهوتها الصباحية ولكنها رأت نفس الوجوه التي رأتها قبل فقدانها الوعي، "حسام" إلى جانبها وقد أرقدها على الأريكة وهو يمسح شعرها في حنانٍ، "محمد" و"مالك" كلاهما قد جثا على ركبتيه وهما يفركا يديها برفق، ومن خلفهما المرأتان اللتان نعقتا على عشها الهادئ: أم "علي" و "نوني" الناهدان اللتان دخلتا حياتها بدون استئذان، غمغمت وهي تسحب يديها من بين يديّ ابنيها:

- إذًا لم أكن أحلم، يا مصيبتي، يا خيبة أملي بعد طول السنين، أولادي من همهما تزوجا بمثل عمر أمهما، واحدة بتقولي يا (أم محمد) والثانية تناديني (ماما) طيب الأولى وسنقول ليلة وتمضي، ماذا عن الثانية؟

قبل أن ينتبه "مالك" فوجئت به تمسكه من ثوب قميصه وهي تقول:

- قل لي يا "مالك" عقدت عليها رسميًّا، أم أن الموضوع مجرد كلام:

قال لها وهو يتملص منها:

- ماما، عيب، اتركي قميصي وأنا سأخبرك.

تركت قميصه فتراجع مبتعدًا عنها وهو يقول:

- طبعًا عقدت عليها رسمي، "نوني" الآن زوجتي شرعًا، حلالي بلالي.

قامت "أماني" وهي تمسك برأسها وهي تقول:

- ضغطي ارتفع يا "حسام".

ثم نظرت لـ "حسام" زوجها معاتبة وهي تقول:

- أنت السبب يا "حسام".

تراجع "حسام" مبهوتًا وهو يقول :

- أنا السبب؟ كيف؟ هل قلت لهما أن يفعلا هذا؟

- لا ولكن مباركتك لرحلة البحث المشؤمة هذه جلبت علينا كل هذه المشاكل.

- ارتاحي فقط وأنا سأتكفل بكل شيء.

نظر إلى ولديه وهو يقول في حزمٍ:

- اتبعاني إلى غرفة المكتب.

تبعه الابنان صاغرين و "محمد" يلكز "مالك" بعبارة ما الذي فعلته بينما جاوبه "مالك" بابتسامة خبيثة وكأنه طفلٌ كسر شيئًا غاليًا دون أن يعي قيمته.

جلس "حسام" بهدوءٍ خلف مكتبه الصغير ووراءه مكتبته العظيمة التي جمعها طوال حياته، وهو يمسك بورقة وقلم ويكتب علامة استفهام على الورقة قبل أن يقول مخاطبًا "محمد" في جدية:

- "محمد" طلبت منك من قبل وأنت تخوض رحلتك نحو فهم ذاتك وتأكيد هويتك، ألا تجرّ على نفسك أو علينا المشاكل، ما بين إصابات في مشاجرات وامرأة تعلق نفسها بك، وبلطجي يجول في أنحاء

شقتنا وامرأة أخرى لا ندري كيف ظهرت ولا كيف أصبحت في عصمة أخيك، نحن الآن نعصف بكيان هذه الأسرة.

حنى "محمد" رأسه وهو يقول:

- آسف يا أبي، الأمور خرجت عن السيطرة فعلاً، ولكن ما باليد حيلة لا بُدَّ من الخلاص من كل هذا والرجوع لحياتنا الطبيعية.

رسم "حسام" خطًّا ما وكتب عليه اسم (محمد و أم علي) وهو يقول:

- حسنًا، قم الآن وخذ أم "علي" هذه واعقد عليها عند أول مأذون تقابله، احجز غرفتين في أي فندق متواضع واحدة لك ولها، والأخرى لذلك المدعو ابنها، في الصباح طلقها لدى نفس المأذون، لو تستطيع حجز غرفة ثالثة له بجوارك يكون أفضل وننسى هذا الموضوع ولا نتحدث عن هذه الذكرى مدى الحياة، هل هذا ممكن؟

هزَّ "محمد" رأسه موافقًا قبل أن يكتب "حسام" خطًا آخر وكتب عليه (مالك ونوني) ثم التفت إلى "مالك" قائلاً:

- هذه السيدة التي تزوجتها بدون عِلمِنا ولا موافقتنا، هل كتبت لها مهرًا أو مؤخر صداق على عقد الزواج؟

قال "مالك" نافيًا:

- لا طبعًا، ولا شي، كتبنا جنيهًا واحدًا كمبلغ رمزي، هل أنا مغفل؟!

ابتسم "حسام" وهو يقول:

- عظيم، إذًا يمكنك أن تذهب إلى نفس المأذون مع أخيك وتلقي عليها يمين الطلاق.

بدت إبتسامة ساذجة على وجه "مالك" وهو يقول:

- في الحقيقة وفي الواقع كنت مغفلًا في هذه، العصمة في يدها وليس في يدي.

قال "حسام" معقبًا:

- هذا لا يمنع، العصمة بيدها ليس معناها أنك لا يمكن أن تطلقها، ولكن معناها أنها من حقها تطليق نفسها أيضًا، اذهب مع أخيك وطلقها.

قال "مالك" معترضًا:

- ولمَ العجلة؟ اليوم زواج أخي، أذهب معه في الصباح ونقوم بحفل طلاق جماعي.

نظر له "حسام" متعجبًا قبل أن يقول:

- لا أعلم كيف طاوعتك نفسك أن تتزوجها، أين كان عقلك؟

نظر له "محمد" وهو يقول:

- لا أحد يستطيع أن يقاوم "نوني" يا أبي، اسمع مني لو جلست معها أنت عشر دقائق كنت لتتزوجها فلا تلُم "مالك" على ذلك ولكن لدي سؤال هل ستدعنا أمي نتمم ما اتفقنا عليه بسلام؟

قالها "محمد" وهو يشعر بالضيق كونه سبب كل هذه المشاكل وخصوصا زواج (مالك) من "نوني" وهي بهذا الماضي الأسود، لم يكن يود أن يخبر أخاه عن تاريخ "نوني" السيء مع الرجال ولا أنها كانت في حضنه وبين شفتيه هذا الصباح فالأمر لا يحتمل، وهم على وشك إنهائه.

تراجع "حسام" في مقعده وهو يجيب عن سؤال "محمد" قائلاً:

- بالطبع لا، لذا سآخذها الآن وسنخرج، سأدعوها للعشاء الليلة، لم نفعل ذلك منذ شهورٍ وهي ستحب أن تريح أعصابها، وخلال ذلك تختفوا جميعًا من البيت، هل هذا واضحٌ؟

نظر الشابان لبعضهما البعض قبل أن يقولا في صوتٍ واحدٍ:

- واضح يا أبي.

الفصل التاسع

(ليلة زفاف انتهت بالطلاق)

لم يجد "حسام" مقاومة من "أماني" حينما دعاها أن ترتدي ثيابها ويخرجا سوًّيا لاستنشاق بعض الهواء النقي، كانت أعصابها متعبةً وتحتاج إلى تغيير المكان والوجوه، كما أنه لم يدعُها للخروج منذ أشهر تقريبًا، وعدها أن أولادها سيحلون كل المشاكل لدي عودتهما وستعود الحياة لسابق عهدها.

ارتدت أحلى ما لديها وخرجت تتأبط ذراعه، نظر لأولاده نظرة ذات مغزى بأنه يلزم عليهما فعل ما اتفقا على فعله.

بعدهما بدقائق غادر كل من الشابين مع مشكلته الصغيرة، محمد قاد سيارته ومعه أم "علي" وابنها "علي" أما بالنسبة لـ "مالك" فقد قاد سيارة "نوني" قاصدًا شقتها.

في الطريق كان عقل "محمد" قد أصبح كبيتٍ مُتصدِّع يوشك على السقوط، خلال عشر ساعات فقط شهد الكثيرمن الأمور التي لم يشهدها خلال شهرٍ، وها هي الساعة العاشرة مساءً وهو يغادر مع امرأة وابنها في مثل عمره ليتمم زواجًا مؤقتًا.

قرأ في مكان ما أن الزواج المؤقت حرامٌ، ولذا اتفق مع أم "علي" على ألا يتم تأقيت الزواج بمدة محددة وعليها هي أن تطلب الطلاق

منه في أي وقت تحدده وذلك لعلمها أنها ترغب بالعودة إلى المعلم "إسماعيل" ولكنه تضايق من أنه يلعب دورًا مكروهًا هنا دينيًّا وأن أول حظه من النساء يكون مع أم "علي".

بينما هو غارق في تأملاته، إذ أتته رسالة على الواتس أب، تفحصها بسرعة دون أن يهدأ من سرعة السيارة، كانت من "فريدة"، ترى كيف سيخبرها أن أول حظه من النساء لن يكون هي، ترى هل ستكمل معه لو تزوج أم "علي" لا يظن ذلك، لن تحب أن يلمس امرأة غيرها حتى ولو مضطرًّا، ربما من الأفضل ألا يخبرها ولكنه بذلك يخون عهد الثقة التي بينه وبينها، تأمل الرسالة في توتر، كانت تستفسر عن حاله، رد عليها بكلمات مقتضبة:

- أنا بخير، سأتكلم معك لاحقًا.

أغلق جواله وهو ينظر بضيق إلى "علي" وأمه، يحاول تصور شعور ذلك الأخير غير المبالي وهو يرى شابًا في مثل عمره يذهب ليعقد على أمه ليدخل عليها في غرفة مجاورة له، شعر بالشفقة تجاهه، هذا إنسان تعرض للقسوة مطولاً حتى لم يعد يشعر بآدميته.

شعر به يخرج سيجارة وحيدة من طيات ثيابه ويشعلها، لها رائحة غريبة، لا بُدَّ أنها نوع من المخدرات، من الأفضل له أن يتخدر حتى ينسى ما يمر به.

في غضون نصف ساعة وصل إلى أقرب مأذون شرعي، وطلب منه أن يعقد له على تلك المرأة، نظر له المأذون في شكٍّ ونظر إلى المرأة، الشاب يبدو ميسور الحال والسيدة ليست مطمعًا لأحد، ولا يمكن أن تجمع بينهما قصة حب بلا شك.

سأله المأذون قائلاً:

- أنت العريس؟

- نعم أنا.

- وهذه هي العروس؟
- نعم هي.
- ومَن هذا الأخ الذي ينظر للسقف؟
- هذا ابنها.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- وحسبي الله ونعم الوكيل يا مولانا، هيَّا عجِّل.

قام الرجل باستدعاء شاهدين من طرفه بعد أن وجدَ أن "محمد" ليس لديه شهودٌ وقام بتلاوة العبارات التقليدية من الإيجاب والقبول، لم تكن أم "علي" بحاجة إلى موكل لها فهي بالغ راشد ولذا كانت تستطيع تزويج نفسها، قال لها المأذون:

- هيَّا رددي ورائي، زوَّجتك نفسي.
- زوجتك نفسي.
- على سُنّة الله ورسوله.
- على سنة الله ورسوله.
- وعلى مذهب الأمام أبي حنيفة النعمان.
- وعلى مذهب الأمام أبي حنيفة النعمان.
- وعلى الصَّدَاق المسمى بيننا.
- وعلى الصداق المسمى بيننا.

التفت الشيخ إلى "محمد" الذي بدا مرتبكًا متردِّدًا وهو يقول:

- ردد ورائي.. وأنا قبلت الزواج منك.
- .....
- هيَّا، وأنا قبلت الزواج منك.

همَّ "محمد" بنطقها قبل أن يقطع تردده جرس هاتفه، ميَّز رقم زميله "زكريا" الذي حادثه صباحًا، سحب يده من يد أم "علي" وسط دهشة الشيخ وهو يجيب قائلاً:

- أهلا (زكريا).. ماذا؟ غيرت رأيك؟.. حسنًا أنا بانتظارك.. خذ العنوان.

عاد ينظر للشيخ وهو يقول:

- تغيير صغير يا سيدنا الشيخ.

- ما هو يا بني؟

- سنغير العريس.

لم يدم انتظار الجميع كثيرًا إذ سرعان ما أتى (زكريا) صديق "محمد" إلى مكتب المأذون وفي عجالة عقد على أم "علي" قبل أن يأخذها معه إلى شقته.

كان (زكريا) شابا سيء الخُلُق وكثير الشهوات ولكن نقطة ضعفة الوحيدة أنه لا يملّ من تجربة الأشياء الجديدة وفكرة الزواج من امرأة أكبر منه سنًّا ومن طبقة شعبية راقت له بشدة ونسج خياله حولها الحكايات طوال فترة الظهيرة وخصوصًا أنها لن تكلفه شيئًا ولا التزام عليه في إبقائها على ذمته، فقرر الاتصال ب "محمد" وإعلامه بموافقته على الأمر.

خرج "محمد" من عند المأذون يتنفس الصعداء وهو يقول:

- الحمد لله، غمة وانزاحت.

شعر بيد تربت على كتفه فالتفت ليجد "علي" ينظر له ببلاهة وهو يقول:

- وماذا عني أنا؟

- ماذا عنك؟

- ماذا أفعل الآن؟ هل أعود إلى أصدقائي، أم أذهب معك؟ أم أنتظر أمي هنا؟

ابتسم "محمد" وهو يقول:

- أنت ستأتي معي، ابتهاجًا بالأخبار السعيدة سأدعوك على عشاء فاخر وليلة إقامة في فندق الهيلتون.

ابتسم "علي" وهو يكشف عن أسنان مكسورة قائلاً.

- هذا الكلام يعجبني، هيَّا بنا.

***

في منزل "نوني" كان "مالك" يعيش جوًا آخر، مَن لم يتزوج "نوني" لم يعرف ما هي النساء، هي المادة الخام للنساء على وجه الأرض، هي النسخة الأصلية والباقي تقليد رديء، هكذا قال "مالك" لنفسه وهو يجلس مع "نوني" داخل غرفة نومها الوردية.

كانت قد أعدت له عشاءً ظريفًا، هناك نبيذ وطبق فاكهة، شغلت له موسيقى رومانسية قبل أن ترتدي روبًا أحمر وتقترب منه مثل النمرة المتوحشة.

التقمت أذنه بين شفتيها وهي تعتصرها برفقٍ قبل أن تهمس:

- أتعرف، أم تريدني أن أعلمك؟؟

حار في إجابته، كل معلوماته نظرية، هو حصان لم يخض سباقًا قَطّ، مشير بدون أن يخوض حربًا مسبقًا، فارس بلا جواد، لاحظت صمته فقالت له:

- يبدو أنك مرتبك، أنا عادة لا أتزوج ولكنك أصررت..

- لا بأس سيزول الارتباك بعد قليل.

صبَّت لنفسها كأسا من النبيذ وهي تقول له:

- كأس النبيذ هذا سيخلصك من كل توترك.

- شكرًا، ولكني لا أشرب.

شربت رشفة خفيفة وهي تستمتع بها قبل أن تشعل سيجارة وتأخذ منها نفسًا عميقًا ثم تناولها له قائلة:

- حسنًا، سيجارة لأجل أن يحلو الجو.

- ولا أدخن كذلك.

- يعني لا دخان ولا خمر ولا نساء من قبل، أنت بكر تمامًا.

كان يتوقع تضايقها من ذلك ولكنها بدلاً من ذلك قبَّلت صدره وهي تنام عليه قائلة:

- كنت أتمنى أن أتزوج مثلك من عشرين سنة، شاب يكون من سني، يفهمني وأفهمه، يلاعبني وألاعبه، ولكن حظي أوقعني في رجلٍ عجوزٍ، دائمًا غاضب لا يعرف من فنون الحب شيئًا، تخيل الماسة في وسط الوحل، مهملة لمدة طويلة، أميرة في سجن وحينما مات سجاني انطلقت للعالم.

رفعت رأسها لتنظر في عينيه قائلةً:

- أنت العالم بالنسبة لي الآن..

فوجئا بطرق على الباب بطرقات خفيفة متباعدة، زفرت في ضيقٍ وهي تقول:

- مَن؟

سمعا صوت طفلٍ صغيرٍ يقول:

- أنا "عمرو".

كان هذا ابنها فقالت في غضب.

- ماذا تريد يا "عمرو" اذهب إلى أختك، نم معها كالمعتاد.

- أنا خائف، هي لا تفتح الباب لي، أريد أن أشرب.

- أووووووف.. قلت لك اذهب.

شعر "مالك" بأن قلبه قد تأثر للطفل فقال لها:

- انتظري هنا، سأذهب معه ليشرب ثم أعود.

لم ينتظر "مالك" موافقتها وهو يخرج ليفتح الباب، كان "عمرو" هو ألطف طفل يمكن أن تقع عليه عيناك، لكي نصفه لك، فقط

تخيل كيف سيكون شكل ابن "نوني"، ملاك صغير بين عالم البشر، تراجع قليلاً عندما رأى "مالك" وبدا متوترًا وهو يقول:

- أين "هشام"؟

- "هشام" من؟

- الذي كان قبلك.

نظر "مالك" إلى الخلف إلى "نوني" التي نامت على الفراش وهي تبتسم له، كان يشعر بالضيق من أنه حلقة في سلسلة طويلة من الرجال مروا على تلك المرأة، كان يتخيل شعور (كولومبس) وهو يكتشف الأرض الجديدة ليجد أن الملايين استوطنوها من قبله قبل أن يقول لـ "عمرو" متظاهرًا بالجدية:

- من اليوم لا يوجد "هشام" هناك "مالك" وغدًا الدور على (شاهين) هيا بنا لتشرب.

أمسك بكف الطفل التي كانت تشبه كف الدمى وهو يسير به إلى المطبخ، فتح الثلاجة وأخرج زجاجة مياه باردة وهو يصب بعضًا منها في كأس ويناوله إياه قائلاً:

- تفضل الماء.

شرب الطفل حتى ارتوى قبل أن يعيد الكأس إلى "مالك" وهو يقول:

- أريد أن أتناول طعامًا، أنا جائعٌ.

- هل هذا وقته؟

- .....

- لا عليك، لننظر ماذا لدينا في الثلاجة يناسب الأطفال، هل تأكل دجاجًا؟ لا لن يناسبك الآن، ما رأيك في بعض الفاكهة والكعك؟

أخرجَ له طبقًا به ثمار فاكهة وكعك وهو يضعها أمامه ويمر بيده على شعره الطويل قائلاً:

- شعرك حلو، أما شعري أنا مجعد.
- أنت أيضًا شعرك حلو.
- شكرًا، هل أذهب الآن؟
- احكِ لي قصة، ف "مريم" نائمة ولم تحكِ لي قصة كالمعتاد.
- أليس لديك جليسة أطفال ترعاك أو خادمة؟
- كان هناك (زينب) ورحلت منذ يومين، قالت إن البيت نجس، هل تعلم معنى كلمة نجس؟
- لا أعلم ولا أريدك أنت أيضًا أن تعلم.
- حسنًا، احكِ لي قصة قبل النوم.
- هنا في المطبخ لا يجوز، تعال أقصها عليك في غرفتك.

حمل "عمرو" طبقه إلى السرير وهو يجلس فيه و "مالك" يجلس إلى جواره وهو يحاول تذكُّر أي قصة للأطفال سمعها من قبل، حتى تذكر قصة مملة كان يحكيها له والده باستمرار حتى حفظها فقال:

- انظر يا سيدي، كان يا مكان، يا سعد يا إكرام..
- اسمها يا سادة يا كرام
- ماذا؟
- أنت تقول سعد وإكرام، هي يا سادة يا كرام..
- والله أول مرة أعرف، حسنًا، كان فيه مملكة جميلة ويعيش فيه صبي رائع اسمه "عمرو"..

صاح "عمرو" في فرحٍ:

- أنا..
- لا ليس أنت ولكني سأعتبره أنت مجاملة، هذا الصبي كان طيب القلب، وفي يوم من الأيام ساعد سيدة عجوز على عبور الشارع فقررت أن تمنحه فرشاة سحرية يستطيع بها أن يرسم أي شيء ليصبح حقيقة، فرح "عمرو" بالهدية كثيرًا وقام برسم عصفور على

الحائط فتحول إلى حقيقة وطار، قام برسم نافورة في وسط المملكة وتحولت إلى حقيقة وفرح الناس بها، أتاه الناس من كل مكان، قال له الفلاح ارسم لي فأسًا لأزرع بها وقالت له المزارعة ارسم لي بقرة لأحلبها لأطفالي وهو ساعد كل الناس وكان سعيدًا بذلك.

- وعاشو في تبات ونبات..

- لا ليس بعد، سمع الملك الشرير الذي يحكم البلاد بذلك الطفل وفرشاته العجيبة فأمرهم أنيبحضروه للقصر ثم طلب منه أن يرسم جنودًا وأسلحة كثيرًا حتى يكوّن جيشًا يهاجم به البلاد المجاورة ولكن الطفل الشجاع رفض حتى لا يؤذي الناس فقرر الملك حبسه داخل سجن القصر.

- وعاشوا في تبات ونبات.

- لا عاشو في المعتقلات، دعني أكمل يا شقي، قام الفتى برسم طعام وشراب وأكل وشرب ولم يزعج عمه "مالك" مثلما فعلت ثم في الصباح رسم بابًا للهروب وهرب خارج السجن ثم خارج المدينة واستمر يرسم رسومًا جميلة ولكنه يجعلها ناقصة حتى لا تتحول إلى حقيقة.

- وعاشوا في تبات ونبات.

- لا توتا توتا فرغت الحدوتة.

- أتمنى لو صارت لي هذه الفرشاة.

- ماذا سترسم بها؟

- سأرسم أمًا أخرى غير أمي ولن أرسم أي رجل معها.

- ولا حتى عم "مالك"؟

- لا أنت مختلف، يمكنني أن أرسمك

- شكرًا يا فنان، هيَّا نم الآن..

نهض "مالك" وهو يدع "عمرو" لينام عائدًا إلى قلعة الإثارة المتحركة "نوني" ولكنه فوجئ أنها نامت في مكانها من فرط ما انتظرته، ولتأثير الخمر عليها.

جلس بجوارها يتأملها، لا يدري لماذا تورط وتزوجها، ولكنه اختار أهون الضررين عليه فما بين خطيئة شبه مؤكدة معها إلى زواج متعجل منها تبدو الثانية أفضل بكثير، ولكنه يشعر الآن بالرثاء لها.. هذه المسكينة التي أهدر شبابها فأهدرت باقي حياتها بيدها، تنتقل من بين رجل إلى آخر، شعر بأنه يؤذيها بوجوده هنا، نعم هو اشترط أن يتزوجها قبل أن يلمسها ولكنه لا يستطيع أن يبقى هنا ويشارك في مسلسل استغلالها.

قام بوضع غطاء على جسدها حتى لا يستثيره أكثر فيغيّر رأيه وهو يبحث عن ورقة وقلم داخل غرفة النوم، وجدهما بعد عناء، أمسك بالورقة والقلم وأخذ يكتب في بطء وهو يحاول انتقاء كلماته بعناية:

"عزيزتي "نوني"، أعلم أنني قد أبدو ساذجًا وأحمقَ بكلماتي هذه ولكنها صادرة من قلبي وأتمنى أن تصل إلى قلبك، إن لديك أبناء رائعين وأنت تصرين على أن تسقطي إلى القاع من نظرهم وإلى الأبد، أعلم أنك مجروحة ولديك عقدة مع الزمن الذي ضاع منك، ولكن هذه العقدة ستستمر مع أبنائك وسيورثونها لأبنائهم في المستقبل، فالمعاناة والظلم دائرة على أحد أن يكسرها يومًا ما، وإلا ستستمر إلى الأبد، قال لي أبي يومًا ما، إن مَن عرف طعم المعاناة عليه أن يجنبها الآخرين، وأن الإنسان الشجاع هو الذي يقرر عدم نقل الظلم إلى غيره حتى لو تعرَّض له، لذا أدعو الله لك أن يلهمك البصيرة وتشكريه ويكفيك أنك كل يوم تفتحين عينيك على هديتين في منتهى الروعة هما أبنائك وفي النهاية وبعد السلام ختام هذه هديتي لك.

أنت طالق.

(مالك)

فرغ من رسالته فقام بوضعها إلى جوار "نوني" في هدوءٍ وهو يغادر الشقة.

***

جلس "محمد" يتطلع إلى "علي" الذي نظر حوله مرتبكًا في قلب ذلك المطعم الفاخر بفندق (الهيلتون) وهو ينظر إلى كل تلك الأضواء والألوان خلفه ثم يعود لينظر لطبقه وهو يتردد في الإمساك بالشوكة والسكين قبل أن يقول له "محمد" مبتسمًا:

- ما بك؟ هيَّا تناول طعامك.

هز "علي" رأسه وهو يقول:

- بصراحة أول مرة أشعر أني من بني آدم.

- كلنا بني آدم، وآدم من تراب ولا فرق لأحد على أحد سوى بالتقوى.

- لا أتفق معك في ذلك، لسنا كلنا سواء، أنت شخصيتك وحياتك غير فلا تقارن نفسك بي.

- أنا هو أنت، فقط لم نتبادل الأماكن، منذ عشرين سنة بالمستشفى كان يمكن أن تذهب مع أبي وأمي وأذهب أنا مع أمك وأبيك، يومها لكنا نجلس في نفس المكان ولكن على مقعدين مختلفين ولقلت لي نفس الكلام الذي أردده لك الآن.

- ربنا يحفظ لك حياتك، أحسن لك أنك لم تتبدل معي.

- ولكن في داخلك، هل تتمنى لو كنا تبدلنا لحظة الولادة وكانت لك حياتي؟

- أكذب عليك لو قلت لك لم أتمنَها، لكنت الآن أعيش في كنف أبي وليس في كنف المعلم "إسماعيل".

- بمناسبة المعلم "إسماعيل" ألا يضايقك أن أمك تفعل كل هذا لترجع له؟

- لم يعد يعنيني، صدقني منذ سنوات طويلة لم أعد أكترث، ربما تظن أنني بارد الأعصاب أو مُخدَّر، ولكني أحس وأشعر وأتألم من الداخل ولكن لو صرخت وبكيت لقالوا عني ضعيفًا.

- ولكن...

- ليس هناك لكن، أتعرف كنت طفلاً نجيبًا في المدرسة حتى سن العاشرة، ولكن كلما وعيت كلما ازداد شقائي، انتهت أن أمي جارية في بيت المعلم ولا أعني بالجارية هنا خادمة يا ليت، كان هذا أشرف لها ولي، هو رجل سوقي وتزوجها لملذاته ولم يكن حتى يستحي، هل تظن أن طفلاً في العاشرة سينشأ سويًا وهو يسمع تأوهات أمه في الليلة تحت وطأة رجل يجامعها أو وهو يراها تخرج نصف عارية إلى الحمَّام، لم يكن حتى يستحي ليغلق الباب عليهما، وكأنه يقول لي انظر ماذا أفعل بأمك.

- لا عليك ،كل إنسان يمر بتجارب سيئة.

- لا، أنت لن تتخيل ما مررت به..

- يمكنني أن أخمن..

- هل يمكنك أن تخمن أني أحب أن ينعتوني بابن الزانية من أصدقائي لأني أعلم أنهم يقولونها مزاحًا ولا أطيقها من زوج أمي لأنني أعلم أنه يعنيها ولا يمزح، من يومها بدأت أبغض المنزل وأصبح بيتي الشارع.

- هي لا تجوز لا جَدًّا ولا مزاحًا.

- أتصدق بالله؟

- طبعًا..

- في يوم حينما كنت صغيرًا، غبت يومين عن البيت ولا أحد سألني أين كنت وكأنهم ارتاحوا لغيابي، من يومها لم أعد أنظر لأمي على أنها أمي، لم أعد أكترث لها وللمعلم "إسماعيل" حتى حينما ذهبت معك وأنك توشك على العقد عليها والدخول بها، وكأني أشاهد مبارةً لمنتخب (الكونغو) لا شأن لي بها، حتى وهي مع صديقك الذي لا أعرفه هذا لم أهتم، هل ترى إلى أين وصلت بي الأمور؟

شعر "محمد" أنه قد أحيا وحش الوجع بداخل نفس "علي" فقال له مهدئًا بلغة يفهمها:

- وحد الله..

- لا إله إلا الله.

- وصل على النبي..

- اللهم صل عليك يا نبي.

- لقد جئنا هنا لنحتفل ونتناول وجبة عشاء طيبة.

- على رأيك، هيا بنا نعش وننتعش.

ضحك "محمد" من عبارته و"علي" يكمل طعامه في نهم وهو يحاول جاهدًا مع الشوكة والسكين حتى إذ يئس منهما تركهما وأكل بكلتا يديه، تأمله "محمد" للحظات طويلة، هذا هو مستقبل كان ينتظره، الله جنبه إيَّاه بستره ولطفه، تذكر الصورة الشهيرة للطفل السوري الذي مات غرقًا على بحار (تركيا)، لو ولد هذا الطفل لأسرة أخرى في بلد آخر لعاش وكبر.

كم هي غريبة الأقدار، سأل نفسه هل لو تعرض لما تعرض له "علي" هل كان ليصبح مثله، يعلم أن الإنسان يتأثر بالظروف والبيئة ولكن هناك بعض القلة من البشر يحاربون الظروف ولا يسمحون لها أن تسيطر عليهم، سيدنا (أبو ذر الغفاري) كان من قبيلة (غفار) الشهيرة بقطع الطريق ومع ذلك اهتدى ثم هدى قومه.

قرأ في أحد الكتب أن البشر ثلاثة أنواع إما جزرة أو بيضة أو قهوة وذلك لطريقة كل منهما في التعامل مع الظروف المحيطة به، فلو ملأت ثلاثة أوانٍ بالماء ثم وضعتهم على نيران قوية، وبعد وقت قليل حينما يشرع الماء في الغليان. فوضعت في الإناء الأول جزرًا، وفي الثاني بيضًا، ثم وضعت في الإناء الثالث حبات بن، فسترى أن الجزر قد أصبح لينًا، وأن البيض سيصبح صلبًا، وأن القهوة ستغير لون الماء وطعمه ورائحته حيث أن كل واحد منهم تفاعل بطريقة مختلفة؛ فالجزر كان صلبًا لا يلين. ولكنه بعدما وُضِع في الماء المغلي، أصبح طريًا وضعيفًا، والبيض كان هشًّا. تحمي قشرته الخارجية الهشة مادته الداخلية السائلة. ولكن بعد بقائه في الماء المغلي، أصبح داخله صلبًا. ولكن البن المطحون، كان مختلفًا. لأنه بعد بقائه في الماء المغلي، استطاع أن يغيّر الماء نفسه..

فكر "محمد" قليلاً عمن يكون من الثلاثة، هل هو مثل الجزر يبدو صلبًا قويًّا، ولكن مع الألم والظروف المعاكسة، ينزوي ويصبح ضعيفًا ويفقد قوته وصلابته، أم أنه مثل البيض، يبدأ بقلب طيع، ولكنه يقسو بنيران التجارب، أم أنه مثل حبات البن المطحونة التي غيَّرت فعلاً الماء المغلي، نفس الظروف التي أتت بالألم عندما راح الماء يغلي، أطلقت من البن الطعم الحلو والرائحة الطيبة.

هو لن يعرف حتى يمر بتجربة سيئة قاسية، "علي" كان جزرًا ومرَّ بتجربة سيئة فصار لَيِّنًا طيعًا حتى وإن حاول أن يظهر العكس فيبدو صلبًا.

انتهى "محمد" من تأملاته على صوت تجشؤ مرتفع فقال له مبتسمًا:

- صحة يا معلم.

- تشكر يا أصيل، هل تجد لي مكانا أبيت به الليلة؟

- سأحجز لك في الفندق الليلة، وغدًا تغادر، ولكن قل لي هل تود العودة مع أمك إلى المعلم "إسماعيل" فعلاً؟

- وهل لدي خيار آخر؟

- ربما يكون لديك..

- ماذا وأين؟

- قل لي هل الجماعة الذين كنت تتشاجر معهم أصدقاؤك؟

- طبعًا، هؤلاء عشرة السنين والأخوة الصادقة.

- واضح أنهم أخوة صادقة بدليل أنهم يجرونك للمشاكل.

- ولكننا ننتصر دائمًا.

- واضح أيضًا، الدم كان ينزف منك لوحدك، يا أخي أنت تتظاهر بالقوة، ولكن في الحقيقة أنت أغلب خلق الله.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الرجولة ليست بالمشاجرات، الرجولة يوم تشعر أمك أنها ليست بحاجة للعودة إلى رجل وتستكفي بك بالدنيا.

- الكلام سهل.

- لو أعطيتك فرصة حقيقة للعمل، ووفرت لك مسكنًا مستقلاً لك ولأمك، هل تخذلني؟

أطرق "علي" ولم يحر جوابًا فأردف "محمد" معقبًا:

- لا تجِبني الآن، اذهب إلى غرفتك التي حجزتها باسمك، تذوق طعم الحياة الكريمة بعيدًا عن زوج الأم، ومشاجرات الشارع، لو أعجبتك، انزل في اليوم التالي واسأل عن شئون الموظفين بالفندق، أعرف المدير هناك، قل له من طرف (محمد الخطيب) من الجامعة الألمانية وهو سيجد لك عملاً، ودَع أمر السكن عليَّ، ولكن عدني ساعتها أنك لن تخذلني، اتفقنا؟

نظر له "علي" وهو صامت فأكمل "محمد":

- سأنتظر الإجابة غدًا.

الفصل العاشر

(وعادت المياة إلى مجاريها)

تأملت "أماني" البحر الهادئ من شرفة ذلك المطعم الذي يقع في آخر منطقة المنتزه وهي تتنهد في شرود قبل أن يخرجها "حسام" من تنهداتها قائلاً:

- "موني"، إلى أين ذهب عقلك؟

نظرت له وهي تقول:

- إلى الشاطئ الآخر من البحر، هل تذكر منذ ثمانية عشر عامًا حينما طلبت منك أن أذهب إلى (إيطاليا) لألد هناك حتى يحصل "مالك" على الجنسية؟

- ياه، هذه ذكرى قديمة للغاية، أذكر أنني رفضت حينها أو ماطلت تقريبًا.

- وندمت على ذلك كثيرًا.

- في وقتها كنت أنا أعمل بدولة أخرى ولا أستطيع ترك عملي والذهاب معك وفكرة أن تذهبي لوحدك بضعة شهور لتبقي في بلدٍ غريبة فقط لتلدي طفلاً يحصل على جنسية أجنبية كانت مستهجنة بالنسبة لي.

- كانت لنا أسبابٌ وجيهة تلك الأيام، البلاد كانت شبه منهارة والأمور مضطربة.

- وانتهت هذه الأسباب، على الأقل بالنسبة لنا، رغم أن البلاد لا زالت تعاني إلا أننا صامدون، ولكن ما الذي ذكرك بهذا الموضوع؟

- تذكرته لما نحن فيه الآن، تخيل أنت ذهبت يومها إلى أخطر بلاد العالم (العراق) من أجل مستقبل أولادك وأنا كنت سأذهب بنفسي ولوحدي إلى بلد غريبة لألد فيها وذلك لأجل مستقبل أولادي، ثم يأتي أولادنا فيسببون لنا الضيق بدلاً عن السعادة، آه لو يعلمون كم تعبنا وحرمنا من أجلهم.

- سيأتي اليوم ويعلمون.

- كيف توقن من ذلك؟

- لأن الموضوع حدث لي مع والدي ألا تذكرين؟ كنت أنتقده في كل شيء، لماذا يفضل أبونا إخوته على أبنائه؟ لماذا لم يقوم بالادخار لنا؟ لماذا لم يشترِ تلك الأرض؟ لماذا لم يفعل هذا الشيء؟ ثم شاء الله أنا أقوم بنفس أفعاله وأخطائه بالحياة حتى أعلم الحكمة من هذا، هم سينجبون يومًا ما وسيتعبون وسيدركون كيف كنا نحبهم ونضحي من أجلهم، أنا توقفت عن التضحية كما تعلمين لأني مقتنعٌ أن على الجميع أن يستمتع بحياته، اقتنعت بهذا مؤخرًا، ولكن هذا أفضل من لا شيء.

- مهما قلت لي لا زلت لا أصدق أن ابني يبحث عن مستقبل بديل، لديه كل شيء.

- دعيه يبحث وسيعلم ساعتها ما الأفضل له.

- ولكنه جر على نفسه وعلينا المشكلات، تخيل أولادي أول حظهم بالزواج يكون في مثل عمر أمهما، هل هذا معقول؟

- اطمئني بصباح الغد سيكون كل شيء قد عاد إلى طبيعته.

- أتعشم ذلك فنفسي قلقة، وأنت تعلم إحساسي لا يخطئ أبدًا.

- ربنا يستر.

حاول أن يخرجها من هذا الفكر المتشائم فقال لها:

- هل تذكرين هذا المكان؟

- نعم لم نأتِ هنا منذ سنوات طويلة، جئنا هنا أول مرة لنحتفل بمناسبة صدور أول كتاب لك، ولم أكن أعلم به، فاجأتني حينما جاء النادل يحمل طبقًا وعليه صينية وفي الطبق وجدت الكتاب.

- اعذريني إن انقطعنا عن هذا المكان طويلاً، ولكن من الآن سنأتي كثيرًا.

- حسنًا دعنا نطلب شيئًا لنشربه ونغادر، أنا قد هدأت نفسي الآن.

- ماذا عن العشاء؟

- سأعده لك بالمنزل، أشعر أنه عليَّ العودة، شيءٌ ما يناديني هناك.

طلب "حسام" عصيرًا لها وشايًا له وهما يتحدثان بهدوءٍ في موضوعات شتى قبل أن يغادرا المكان، كانت تمسك بيده في قوة لم يعهدها وحينما استقرا في السيارة قالت له:

- أتعلم رغم كل شيء، ورغم مرور السنين وكبر أبنائنا لا زلت أشعر بنفس حبي القديم لك، واليوم استشعرت حبك القديم لي.

- هو هو لم يتغير، فقط يعلوه التراب من حين لآخر ويحتاج إلى لمساتك حتى يبرق من جديدٍ.

- لم تسألني كيف عرفت؟

- حسنًا، كيف عرفتِ؟

- لقد ناديتني (موني) ألا تذكر؟

- دائمًا ما أناديك (موني).

- لا ليس دائمًا، حينما تكون متضايقًا تناديني "أماني" أعرفك كما أعرف كف يدي.

ضحك "حسام" وهو يقول:

- أتعلمين، لقد ذكرتِني بقصة من الأثر الصالح، كان سيدنا "محمد" صلى الله عليه وسلم يعلم متى تكون السيدة (عائشة) رضي الله عنها راضية، ومتى تكون متضايقة منه فحينما تكون راضية تقسم بـ (رب محمد) وحينما تكون متضايقة منه تقسم بـ (رب إبراهيم) حتى الأنبياء عانوا معكم معشر النساء.

ابتسمت "أماني" وهي تضع يدها على صدره قائلة:

- ولكن الحياة لا تحلو بدوننا، أنت تعلم كم كان يعشق السيدة "عائشة"؟

أجابها "حسام" مازحًا:

- النساء هن الدواهي والدوا (هن).. لا طيب للعيش بلا هن والبلاء (هن) ..

ضحكت وهي تقول:

- أعرف هذا البيت، كنت تردده في عيد المرأة دومًا، أظن أنه هناك بيت شعر مقابل له.

ابتسم في خبثٍ وهو يقول:

- أرهنك بألف جنيه أنك لن تعرفيه.

أطرقت للحظات وهي تقول:

- انتظر، سأفكر به.. آه تذكرت "الرجال هم المرهم والمر (هم).. لا طيب للعيش بلاهم والبلا (هم)".

أطرق رأسه وقد أسقط في يديه قبل أن يقول:

- دائمًا ما تكسبين الرهان، كم بلغ حسابنا الآن؟

- ألف جنيه وهناك ألفا درهم من أيام الإمارات، وألف ريال من أيام السعودية، حسابك ثقيل يا زوجي الحبيب.

ضحك وهو يقول:

- الحساب واحد يا زوجتي العزيزة، لقد اقتربنا من المنزل على أي حال.

كان قد اقتربا من المنزل ولاحظت هي أن شرفة الشقة مضاءة، فقالت:

- عجبًا، لا أظن أننا تركنا الشقة مضاءة قبل مغادرتنا.

- ربما عاد أحد الأولاد.

- كيف يعودان في ليلة مثل هذه، هيَّا لنستطلع الأمر بسرعة.

في غضون دقائق كانا قد اقتربا من باب الشقة و"حسام" يولج المفتاح في الباب ويديره وهو يسارع بالدخول، كان أول ما طالعه وجه "محمد" وقد جلس يتصفح ألبوم صور للعائلة بين يديه فتنهد في ارتياحٍ وهو ينظر إلى "أماني" قائلاً:

- زوج أم "علي" يا قمرنا المنير، ما الذي جاء بك؟

ابتسم "محمد" وهو ينهض ليحتضن والدته ويضغط على صدرها في حنان قائلاً:

- عدت بمعجزة إلهية، لقد وجدنا تيسًا آخر لأم "علي" وانتهت هذه المشكلة نهائيًّا.

تنفست "أماني" الصعداء وتهلل وجهها بالفرح وهي تقول:

- حقيقي، كيف؟ احكِ لي تفاصيل.

أجابها "محمد":

- سأحكي لك كل التفاصيل ولكن أولاً أريد كوبًا من الكاموميل من يدك الحلوة حتى يحلو الكلام

قبل أن يكمل "محمد" عبارته شعرا بالباب يفتح و "مالك" يدلف إلى الداخل في هدوءٍ فصاحت "أماني".

- "مالك" أيضًا عاد، ما الذي حدث الليلة؟

ابتسم (مالك) وهو يقول:

- لقد وجدتني معطلاً فأعادتني لأمي.

ضحكت "أماني" وهي تحتضنه قائلة:

- ولن تغادر حضن أمك أبدًا يا قرة عين أمك.

تأملت وجهه بعد أن احتضنته وهي تقول:

- صراحة فضولي يقتلني، أريد أن أعرف ما الذي حدث.

قال لها "مالك" بهدوءٍ وهو يضع وجهها بين كفتي يديه.

- سأروي لك كل شيء، ولكني لم أتناول أي طعام، ما رأيك أن تعدي لنا بيتزا من يديك ونحتفل سويًّا حولها مثل الهنود الحمر ثم أحكي لك.

قبَّلت أمه راحة يده وهي تقول:

- أي شيء تطلبونه مجاب يا أولاد، الليلة بالنسبة لي عيد، لا أعرف لماذا كنت متشائمة؟

ذهبت "أماني" وعانق "حسام" ولديه وقضى الجميع ليلة من أجمل لياليهم، ضحكوا كثيرًا كما لم يفعلوا من قبل، تبادولوا المزحات والكلام الطيب، حتى إن "حسام" في قرارة نفسه شعر بالقلق، هو يعلم دائمًا ما الذي يلي ذلك،كل ليلة أكثر فيها من السعادة لا بُدَّ أن تليها أيامٌ من الأخبار الحزينة ولكنه كتم شعوره داخله وهو يكتفي برسم ابتسامة متكلفة على وجهه دون أن يبدي شيئًا.

فلتكن الليلة خمر..

وغدًا أمر..

الفصل الحادي عشر

(عاصفة جديدة)

استيقظت "أماني" مبكرًا ذلك اليوم رغم أنها نامت متأخرة، هي بالأحرى كانت في نوم متقلب طوال الليل، حاولت أن توقظ "حسام" كعادتها ليجلس جوارها تصارحه بقلقها المبهم ولكن منظره وهو نائم كالمسكين بعد يوم عناء طويل لم يطاوعها أن يوقظه فقالت لربما تتحدث معه في الصباح.

كان الأولاد نائمين كذلك، ألقت نظرة على كل واحد في غرفته وهي تبتسم لغرابة تلك المصادفة، الاثنان تزوجا في نفس اليوم، وبدلاً من أن يستيقظا كل في حضن عروسه، إذ هما لا يزالان في حضن أمهما..

لم يحن قدرهما الحلو بعد..

قامت لتشغل نفسها ببعض أعمال المنزل قبل أن تتوضأ وتقرأ قليلاً من القرآن ثم أقبلت توقظ رجال البيت في استعجالٍ؛ فقد قلقت من الجلوس وحدها.

كانت قد أعدت إفطارًا لذيذًا ولكنها لم تشاركهم بالطعام، ظلت تنظر لهم وكل يمد يده في طبقه، راقبت مضغهم للطعام، "مالك" و"حسام" يمضغان بسرعة وكأنهما في سباقٍ وتلك هي عادتهما، بينما "محمد" يمضغ ببطءٍ وكأنه يستلذ بالطعام أو يفكر قبل أن تبتسم قائلة:

- صباحية مباركة يا عرسان.

ضحك الرجال وتبادلوا تعليقات ساخرة وكل منهما يكمل طعامه قبل أن يسمعوا دقًا على جرس الباب وقرعًا عليه شديد الوطأة حتى إنه يوشك أن ينخلع من مكانه.

شعروا بالذعر، مَن الذي يقوم بمثل هذا، هل قامت القيامة، أسرع "حسام" يعدو نحو الباب وهو يفتحه بسرعة، فوجئ بضابط يقف على باب الشقة ومعه بعض أفراد الأمن وهو يقول:

- منزل (مالك حسام)؟

أتى "مالك" مسرعًا على إثر سماع اسمه وهو يجيب دون أن ينتظر والده:

- نعم أنا.

- معنا أمر نيابة بالقبض عليك.

- ماذا؟ ما الذي فعلته؟

تجهم وجه الضابط وهو يتأمله قائلاً:

- أنت متهم بقتل زوجتك السيدة (ناهد عبد اللطيف حسين).

تراجع "مالك" للخلف مصعوقًا وهو يقول:

- "نوني" مستحيل، أنا لم أفعلها لقد كانت حية حين تركتها بالأمس.

أمسكت به أمه وهي تغالب انهيارًا يوشك أن يصدع روحها، لقد توقعت الأسوأ، ولكنها لم تتوقع مثل هذا الخبر على الصباح بينما قال والده وهو متكدر:

- بالتأكيد هناك خطأ يا سيادة الرائد، "مالك" هنا منذ الأمس وهو تركها حية كما قال.

أسرع الضابط يقول:

- كل هذا يذكر في محضر النيابة، هيَّا تعالَ معنا بلطف ولا داع لاستعمال القوة.

قال عبارته وهو يشير لرجاله الذين التفوا حول "مالك" وهم يقتادونه معهم، لم يحاول المقاومة مثل الأفلام، هو يعلم أنه لم يفعل شيئًا، فقط نظر إلى والديه و"حسام" يسرع بتبديل ملابسه ليلحق به، بينما "محمد" يحتضن والدته التي صرخت في ارتياع من خوفها على ابنها قبل أن تنهار على الأرض تمامًا.

كانت تشعر وكأنما قبضة قوية تعتصر قلبها، أو كأنها تهوي من حالق، اليوم تفسير شعورها المبهم بالأمس بأنه هناك شيئًا ما ليس على ما يرام، ربما هي غريزتها كأنثى أو شعورها كأم بما يمكن أن يتعرض له ولداها ولكنها لم تكن تتصور أن تصيب المصيبة هذه المرة ابنها الصغير "مالك".

دائمًا ما يتعب قلبها هذا الولد..

رغم كونه أكثر قوة وانفتاحًا من أخيه لكنه يعانى المشاكل منذ مولده..

لم يحضر والده ولادته لانشغاله بالعمل..

وأصيب بالصفراء ثاني يوم لولادته وبقي بالحضَّانة بعيدًا عنها لمدة ليلتين ذاقت خلالهما الأمَرَّين.

وكان يعاني من مناعة هشة ضد الأمراض، وتأخَّر في نطقه كثيرًا ولم ينل حظه في أي شيء..

لم يؤتَ مثل حظ أخيه

في المسرات نصيبه النصف

وفي المضرات نصيبه الضعف

رأت "حسام" يعدو أمامها ليلحق بابنه، حاولت أن تقوم من مكانها لتعدو معه ولكن قدماها لم تطاوعاها وكأنهما ثبتتا بالأرض فصاحت بـ "محمد" قائلة بجذع:

- وراء أبيك يا "محمد" أنقذ أخاك يا "محمد"..

أسرع "محمد" يجري وراء أبيه دون أن يهتم حتى بارتداء ثيابه واكتفى بثياب المنزل وهي تردد في ضعف جلي:

- استرها يا رب.

***

حينما وصل "حسام" و "محمد" إلى قسم الشرطة وجدا (محمد حمزة) المحامي هناك، كان "محمد" و "حسام" يدرسان الحقوق سويًا ولكن "حمزة" قرر احتراف المحاماة وبرع فيها وما إن علم "حسام" باحتجار "مالك" حتى سارع بمكالمة "حمزة" لكي يسبقه إلى قسم الشرطة.

استأذن "حمزة" في الدخول إلى تحقيقات النيابة ووجد "مالك" يجلس وهو على وشك الانهيار أمام وكيل النيابة، أمسك بيده يطمئنه قبل أن يبدأ وكيل النيابة تحقيقاته التقليدية:

- إنه في تمام الساعة السابعة من صباح يوم الخميس الموافق 22 /2032/05 وبعد تلقينا بلاغ إلى النيابة بالعثور على جثة (ناهد عبد اللطيف حسين) مذبوحةً بشقتها بسموحة وتم البلاغ عن طريق ابنة المجني عليها، انتقلت قوة من النيابة لمعاينة موقع الحادث حيث صرحت ابنة المجني عليها أن القتيلة كان برفقة المدعو (مالك حسام محمد) عقب زواجها منه، وأنها حين استيقظت وجدت والدتها غارقة بدمها في الفراش دون وجود أدنى أثر للمتهم. وبعمل التحريات اللازمة تم القبض عليه داخل مقر شقته الواقعة في (....) واقتياده إلى سراي النيابة.

كان كاتب النيابة يكتب على جهاز حاسوب حديث في سرعة تتناسب مع سرعة الكلام قبل أن يكمل وكيل النيابة قائلاً:

- وعليه تم فتح المحضر كالتالي، اسمك وسنك ومهنتك؟

تعلثم "مالك" قليلاً قبل أن يقول:

- "مالك حسام محمد السيد" طالب بالسنة الأولى بالجامعة الفرنسية، سني 18 سنة.

- أين كنت ساعة وقوع الجريمة؟

- أنا كنت ببيتي مع أسرتي منذ الأمس، ولقد تركت المرحومة "ناهد" تقريبًا منتصف الليل كانت نائمة بشكل طبيعي في فراشها.

- ما حدود علاقتك بالمجني عليها؟

- هي زوجتي، تزوجنا بالأمس بعقد رسمي.

- وهل حدثت بينكما أي مشكلات بالأمس؟

- لا كل شيء كان طبيعيًّا ولم يحدث بيننا شيء.

- إذًا ما تفسيرك لكونك لم تبقَ معها تلك الليلة والتي كان من المفترض أن تكون ليلة عرسكما؟

- لا شيء، شعرت بالندم على زواجي منها فتركت لها خطابًا وهي نائمة وودعتها به ثم طلقتها.

- تقرير النيابة يذكر عدم العثور على أي خطاب داخل غرفة القتيلة يشير إلى ما قلت.

- لقد ذكرت الحقيقة ولا حاجة بي لقتلها، لم قد أقتلها وهي زوجتي؟

- متى غادرت منزل القتيلة بالضبط؟

- الساعة الحادية عشرة ليلاً..

- هل رآك أحد ساعتها؟

- لا أعلم، ربما رآني أحدهم.

- عموما نحن بانتظار تقرير الطبيب الشرعي لبيان سبب الوفاة وساعتها مع تقرير رفع البصمات، لحين ذلك أنت قيد الاحتجاز.

نظر "مالك" إلى "حمزة" المحامي في استغاثة فأسرع المحامي يقول:

- ألا يمكننا لحين صدور التقرير الاكتفاء بإخلاء سبيل موكلي مقابل كفالة مالية؟

قال وكيل النيابة:

- للأسف لحين صدرور التقرير لا يمكنني إصدار مثل ذلك الأمر.

أطرق "حمزة" رأسه أسفًا قبل أن يقول لـ "مالك" مرة أخرى.

- لا تقلق، كل شيء سيكون بخير.

طال انتظار "حسام" و "محمد" بالخارج بدون وجود ما يشفي صدريهما، كان "محمد" يتساءل في نفسه، كيف حدث كل هذا ومتى؟ لا يمكن أن يكون أخوه قد ارتكب شيئًا كهذا، يكاد يشك في نفسه ولا يشك فيه.

يذكر أنه في صغره كلما فقد شيئًا أو كسرت إحدى أشيائه أن اتهم أخاه قبل أن يبلغ وينضج ويصبح أخوه له أكثر من صديق.

شعر بالضيق أنه السبب حينما وضع "نوني" في طريق "مالك" وتسبَّب في كل ما حدث، يا ليته لم يقم ببحثه المشؤوم..

يود لو كان لديه آلة زمن لعاد بالزمن إلى النقطة التي خرج فيها يبحث عن شخصية "ناهد" بالمركز الطبي الجديد ويلغيها من حياته

أو ربما يعود لما قبل ذلك بأن يطلب من والدته ألا تحكي له القصة.

لا سيعود إلى اللحظة التي ولد فيها ليمسك بفم الممرضة قبل أن تقول عبارتها المربكة..

ولكنه يعلم أن كل هذا أضغاث أمنيات ولن يحدث..

هو هنا الآن وأخوه ينتظر سجنًا غير معلوم المدة بجريمة قتل لم يرتكبها

أي وبال جرَّه على العائلة بفضوله؟

مرت اللحظات عليهما ثقيلة قبل أن يخرج "حمزة" و "مالك" يقتاده رجل الأمن، فأسرع "حسام" يقول:

- طَمْئِن قلبي يا "حمزة" ما الذي حدث؟

- للأسف سننتظر يا رفيقي، "مالك" رهن الاحتجاز لحين صدور تقرير الطبيب الشرعي.

- ألن يدعونا للشهادة حتى نقول إنه كان بين أحضاننا طيلة الليلة؟

- ليس قبل صدور التقرير.

نظر له "مالك" قائلاً:

- لا تقلق يا أبي، أنا بريء والله سينجيني.

- طبعًا يا بني، لم أشكّ لحظة.

هكذا قالها "حسام" وهو يرى ابنه يقتادونه إلى الحجز وسط عجزه المقيت، في هذه اللحظة يسأل نفسه هل لو لديه سلطة كان سيستغلها لعدم احتجاز ابنه؟ المبادئ جميلة ولكنه هل سيدوس عليها لو امتلك سلطة الآن؟ فوض أمره إلى الله و "حمزة" يقول له:

- لا داعي للانتظار يا "حسام" تقرير الطب الشرعي لن يصدر قبل المساء.

- لا أستطيع أن أغادر، وأترك روحي هنا.

- لن يفيدك المكوث هنا، ربما يطول الأمر، سأطلعك على التطورات أول بأول.

عقب "محمد" على كلام "حمزة" قائلاً:

- فعلاً يا أبي، لنذهب للبيت، سأبدِّل ملابسي ثم فرصة نفكر كيف سنتصرف، لا تنسَ أننا تركنا أمي في البيت وحدها ولا ندري كيف حالها وأنا سأعود مباشرة لهنا لمتابعة الأمر، فلا تقلق.

استسلم "حسام" لكلام ابنه وهو يقول له:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، هيَّا بنا.

طوال الطريق إلى البيت كان عقل "حسام" يعمل في سرعة وتركيز، يحاول وضع المعلومات بجوار بعضها البعض قبل أن يقول:

- ترى من يمكن أن يكون قد قتل تلك المرأة؟

- لا أعلم يا أبي، المرأة ليست من النوع الشرير، هي لعوب ليس إلا، لا أظن هناك أحد سيقتلك لأنك لعوب.

- إذًا أنت تعلم أنها لعوب؟

- نعم و "مالك" يعلم ولكنه وقع تحت تأثيرها.

- هل لديها علاقات كثيرة؟

- أكثر مما تعده الأصابع بالتأكيد.

- هذا يجعل الأمر معقدًا، لا نستطيع حصر الشبهة في واحد أو اثنين، حسنًا لنبحث عن المستفيد.. في الروايات وفي الحقيقة يكون هناك مستفيد بموت إنسان، هي لم يسرقها مقتحم بيوت، هناك شخص ما قتلها لغرض في نفسه، ربما مشاكل مالية، ربما مسألة شرف، ربما غارَ من علاقتها بأحدٍ ما غيره، ترى من يكون؟

تنهد "محمد" وهو يقول:

- والله يا أبي مع "نوني" كل شيء متوقع، هذا المرأة عاشت حياتها مؤخرًا بلا حدود والخفي في حياتها أكثر من الظاهر.

سأله "حسام" بدهشة:

- أليس لديها أولاد؟

- فقط بنت واحدة، تلك التي ولدت يوم مولدي وطفل في السادسة من عمره.

- وهل يقيمان معها في الشقة؟

- لا أعلم، بالتأكيد، آه تذكرت، نعم يقيمان.

- هل يمكنك أن تأخذني إلى شقتها؟

- لماذا؟

- شيء ما أريد التأكد منه.

- حسنًا، سآخذك هناك، ولكن لن ندخل، بالتأكيد الشرطة في كل مكان بالبناية ومنظرنا سيكون محرجًا ومريبًا.

- لا عليك، خذني هناك فقط.

أخذه "محمد" إلى عنوان شقة "نوني" في (سموحة) قبل أن يتوقف قُربَ البِناية، تأملها "حسام" بتركيز قبل أن يترجل من السيارة ويجول حول البناية، كان هناك بعض أفراد الأمن هناك، حارس البناية يجلس في توتر كذلك، فهو في موضع مسئولية واتهام بالتقصير كذلك.

نظر "حسام" إلى محيط المكان قبل أن يشير إلى "محمد" قائلًا:

- هل ترى فرع البنك هذا؟

نظر "محمد" إلى حيث يشير "حسام" بيده قائلاً:

- نعم أراه، ما به؟

- هناك كاميرا مراقبة في الزاوية، هذه الكاميرا أظن يأتي في مجال رؤيتها مدخل البناية.

- وكيف تعرف؟

- أنسيت أن والدك كان مدير أمن بشركة يومًا ما؟

- لم تذكر لي ذلك أبدًا ولكن لا بأس، كيف سنحصل على التسجيلات؟

- سنبلغ الشرطة بها وهم سيطلبونها، لو تمَّ ميعاد القتل بعد مغادرة أخيك والكاميرا سجَّلَت خروجه، إذًا فهو بريء وسترحل التهمة إلى أشخاص آخرين.

قال له "محمد" وقد بدأ شعور بالراحة يتسرب إلى نفسه:

- إن شاء الله يا أبي

- هيَّا بنا نعد إلى والدتك، أخاف أن يكون قد أصابها شيء

بعد نصف ساعة فقط كان "محمد" وأبوه قد عادا إلى البيت، رأيا "أماني" تجلس على الأرض وهي منهارة من البكاء المتواصل وأختها بجوارها تواسيها، قام "حسام" بتحية أختها وكذلك فعل "محمد" قبل أن تقول هي:

- قلبي عندك يا "حسام".

- لا بأس يا "صفاء" شدة وتزول.

قالت أماني بصوت متحشرج وسط دموعها:

- أخبروني ما الذي سيحدث الآن، متى سيعود؟

اقترب منها "حسام" وهو يضمها إلى صدره قائلاً:

- لا تقلقي، كل شيء سيكون بخير، المحامي يتابع التحقيقات وأنا و "محمد" لدينا شيء ربما يساعد الشرطة في تحقيقاتها، فقط ننتظر تقرير الطب الشرعي.

- وهل سندعه بقسم الشرطة كل هذا الوقت، هل تعلم ما هو القسم على شاب مثله، يعاشر مجرمين ولصوص وقتلة.

- لا تقلقي، ابنك رجل وسيعرف كيف يحمي نفسه، لن يطول الأمر.

لم تجبه واكتفت بأن دفنت وجهها في صدره وأكملت البكاء.

لم تكن تصدقه

ولكنها أجبرت نفسها أن تفعل

ليس لديها سوى ذلك..

الفصل الثاني عشر

(معاناة قصيرة)

نظر "مالك" إلى المحتجرين معه في القسم في غير اكتراث، كان قد شاهد الكثير من المشاهد في الأفلام تصور تلك اللحظة، لحظة دخول البطل البريء على المجرمين، يعلم أنه سيحدث اختبار قوة له الآن ومِن الأفضل ألا يبدو ضعيفًا أو منهارًا.

حاول رسم وجه قاسٍ على وجهه ولكنه أيقن أن ملامح وجهه الناعمة لن تسعفه، حسنًا ليبادرهم هو بالمعاملة القاسية قبل أن يفضحوا أمره.

اقترب من أضعفهم بنية وهو يصيح فيه:

- تحرك من هنا، هذا المكان أريده..

طاوعه المسكين وقد خاف من لهجتة القاسية ونظراته، لا بُدَّ أن هذا هو الحائط المائل الذي يستبد به كل مجرمي الحجز، جيد أنه قد أحسَن الاختيار ولم يقع مع مجرم عتيد، جلس "مالك" إلى جواره، بحث في ملابسه ولكنه للأسف لا يملك سيجارة ليشعلها حتى يبدو قاسيًا، تحرك أحد الرجال يماثل حجمه مرتين وهو يقترب منه في بطء.

هذا ما يخافه، هذا لا بُدَّ من أن يكون أشدهم إجرامًا، ربما ضايقه وجود شخص يحاول أن يبدو خشنًا في الحجز ويسيطر على الآخرين، حسنًا ليحاول أن يبدو صلبًا أمامه، مال الرجل نحوه وهو يقول:

- هل لديك سجائر؟

يعلم هذا الأسلوب؛ سيسأله عن السجائر وبعدها سيطلب منه أشياء أخرى عنوة فأصدر صوتًا خشنًا وهو يقول:

- نفدت، ولا أملك نقودًا وجِنّ الأرض يتراقص أمام عيني.

أمسك الرجل يتلابيب ملابسه وهو يقول:

- اعتدل في كلامك يا ولد.

لم يجد "مالك" بُدًّا من الدفاع عن نفسه فضرب بساق قدمه ما بين فخذي الرجل في قوة، الذي احمرت وجنتاه وهو يترك "مالك" يسقط قبل أن يقول في غلظة:

- يا ابن...

لم يحتمل "مالك" أن يسب الرجل أيًّا من والديه فأسرع يكيل الركلات والضربات للرجل في قوة عجيبة لم يكن يتصور أنه يمتلكها.

كان يختلف عن "محمد" في هذه الناحية، كان يمتلك جسدًا أقوى وروحًا عنيدة، أنقذه من الاستمرار في العراك دخول أفراد الأمن إلى غرفة الحجز ليفصلوا بين الاثنين.

جلس "مالك" في آخر غرفة الحجز وهو يرتكن بظهره إلى الحائط، أتاه الشاب الضعيف وهو يتودد له قائلاً:

- ما التهمة التي أتيت بها هنا؟

نظر له "مالك" وهو يغلق نصف عينيه قائلاً:

- يقولون قتل.

***

انحدرت دمعتان ثقيلتان من عيني "أماني" وهي تداعب بأناملها صورة "مالك" المعلَّقة على جدار غرفته، كان باسمًا في الصورة وهو يحتضن بعض أصدقائه المقربين، زفرت في وجع وهي تقول:

- آه يا "مالك" يا وجع قلبي، دائمًا قلبي لا يطمئن عليك.

نظرت حولها في الغرفة وهي تحتوي كل الأشياء بعينيها، مكتبة "مالك" الصغيرة، كراته الكثيرة هنا وهناك، صور نجومه المفضلين، حتى ألعابه منذ الصغر لا زالت مكانها، جلست على مكتبه، فتحت أدراجه في هدوءٍ، وجدت صورة لفتاة في مثل عمره، ربما هي حبيبة سِرّية له، ابتسمت رغمًا عنها قبل أن تنهمر عيناها أكثر ثم تمسحها من جديد.

منذ صغره وهي تشعر دائمًا بالقلق عليه ومنه، وُلِدَ ضعيفًا على غير العادة واختطفته مخالب الحضَّانة من بين يديها في سرعة ولم يكتمل عمره أيامًا، وها هو الآن بين جدران زنزانة في محنة لا تعرف هل سيجتازها أم لا.

تذكرت يوم أغلق باب الحمَّام على نفسه وهو ابن ثلاث سنوات ولم يستطع فتحه وظل يصرخ بشدة من الداخل وهي تطمئنه من الخارج.

كان محبوسًا على بُعدِ سنتميتراتٍ منها وبلغ بها القلق مبلغه عليه رغم علمها بسهولة خروجه، فما بالها اليوم وهو محبوس في مكانٍ بعيدٍ بدون وجود يقين أنه سيخرج منها سالمًا أو سيخرج كما كان.

كانت ساعتها تخاف عليه من شياطين الحمَّام التي سمعت بها، والآن تخاف عليه من شياطين الزنازين التي هي أقسى وأكثر توحشًا.

توَد لو عاد بها الزمن لتلجم لسانها عن ذِكر قصة "ناهد" وابنها التي جرَّ البحث عنها كل تلك المصائب، وقفت من جديد وهي تجول في الغرفة تلمس الأشياء، وتتأمل صورة "مالك" من جديد..

وتساءلت:

هل لذلك الليل من فجر يلوح؟

***

كان "مالك" منهمكًا في الحديث مع زميله الودود بالحجز وهو يولي ظهره للآخرين، ومن بعيد تهامس أحد السجناء مع زميله وهو يُشيرُ

بطرف عينيه إلى "مالك" في حنقٍ، قبل أن يقومَ زميله بإخراج مدية حادة من مكان خفي بثيابه ثم يناولها إياه وهو يتلفت حوله.

كانا يعلمان أنها طعنة واحدة وينتهي الأمر، سرعان ما تناول الآخر المدية وهو يقترب في بطءٍ وحذرٍ من "مالك" و لاحظ من يحادثه أن هناك خطرًا يقترب فانتفض من مكانه وهو يصيح:

- احذر من..

لم يتم عبارته إذ سبقته حركة الرجل الذي انطلق يخرج المدية ويطعن بها "مالك" في ظهره و...

"احذر يا مالك"

صرخ "محمد" بهذه الكلمة وهو يستيقظ من نومه مفزوعًا قبل أن يضع يده على صدره وهو يرتجف، حمد الله أن الأمر لا يتعدي كونه حلمًا مزعجًا، فوجئ بوالدته تهرع للغرفة بسرعة وهي تطمئن عليه، يرى في عينيها نظرة مزدوجة بين العتاب والقلق.

يبدو من ملامحها أنها لم تكن نائمة، ولام نفسه كيف يغمض له جفن وأخوه بمحبسه، سألته في توتر:

- ما الذي رأيته؟

كانت قد سمعت صرخته ولكن لم تستوعب ما الذي قاله، هز رأسه وهو يعاود النوم قائلًا:

- لا شيء كان حلمًا فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام.

أحست بما قصده فتمتمت رغمًا عنها:

- يارب.

***

كان تقرير الطبيب الشرعي قد ظهر وأثبت أن "نوني" قد قُتِلَت فيما بين الساعة الثانية والرابعة صباحًا، وبعد تتبع الدليل الذي قدمه "حسام" إلى النيابة ظهر من الكاميرات أن "مالك" قد غادر

المبنى في تمام الحادية عشرة ليلاً مما ينفي كونه من قتلَ "نوني" فأفرجت عنه النيابة بضمان محل إقامته.

تلقته "أماني" بالأحضان الغامرة وهي تضمه لها و "مالك" يترك لها جسده المنهك بين ذراعيها ليستمد منها القوة .

فرحت "أماني" كثيرًا، وكعادتها حينما تفرح بكت أكثر، وهي تصطحب "مالك" إلى غرفته ليستريح فقد بدا مرهقًا مما مر به.

مضت أيام عديدة قبل أن يفاجأ "حسام" بصديقه المحامي "حمزة" يحضر إلى داره قائلاً له:

- لقد وجدوا القاتل.

سأله "حسام" في لهفة:

- مَن؟

- من تحريات النيابة كانوا يشتبهون في (مريم) ابنة المجني عليها، وبتضييق التحقيقات معها انهارت واعترفت بالأمر وأنها هي من فعلت هذا انتقامًا من والدتها وخوفًا من أن تضيع ما تبقى من مالهم على زوجها الجديد.

تدخل "محمد" في الحوار قائلاً:

- مسكينة، لا أدري من فيهما المجني عليها "نوني" أم "مريم" نفسها، هذه مأساة عائلية متكاملة.

أجابه "حمزة" قائلاً:

- لا تشعر بالشفقة عليها، لا تنسَ أنها قد مزقت رسالة الطلاق التي تركها أخوك وتركت التهمة تلصق به، وكان هذا ليجره إلى السجن المؤبد بالتأكيد:

سأله "حسام" بسرعة:

- ولكني أستغرب مجيئك يا "حمزة" لهذه الأخبار فقط، كان يمكنك أن تخبرني بها هاتفيًا.

ضحك "حمزة" وهو يقول:

- هل أنت بخيل يا "حسام" ألا تريدني أن أزور بيتك.

ربت "حسام" على ظهره برفق وهو يقول:

- يا حبيبي، بيتي هو بيتك في أي وقت، ولكني أعرفك وأعرف أن وراء الأكمة ما وراءها.

حنى "حمزة" رأسه وهو يقول:

- نعم، هناك أمرٌ أخيرٌ يخص قضية "مالك"، حيث أن رسالة الطلاق قد دمرت وفعليًا هي كانت لا تزال في فترة العدة وقت موتها، إذًا من حق "مالك" أن يرث منها و...

أتاه صوت "مالك" من خلفه يقول:

- لا يا عم "حمزة".

التفت "حمزة" إلى "مالك" الذي ظهر عند باب الغرفة وهو يقول:

- لماذا يا بني، إنه حقك شرعًا وقانونًا.

تحرك "مالك" ليجلس قائلاً:

- نحن من بيت لا يقتات من مصائب الناس، كان خوف ابنتها من بعثرة المال؛ فلن أدخل أنا لأشاركهم فيه في ظروفهم تلك، كما أن هناك طفلاً صغيرًا فقد أباه وها هو يفقد أمه وأخته بضربة واحدة، كيف سيعيش؟

قال "حمزة" وقد فهم ما رمي له "مالك":

- هذا الطفل مصيره غير معروف، هو الآن في دار رعاية، سمعت أن له خالة في مكان ما ستستلمه من هناك وترعاه، له الله على كل حال، إذًا أنت لا ترغب في الميراث يا "مالك" هل هذا قرارك الأخير؟

إلتقط "مالك" نفسًا عميقًا وهو يقول:

- نعم، هو قراري الأخير.

***

مرَّ "محمد" على فندق الهيلتون لكي يطمئن على "علي" فقد انشغل عنه في الأيام السابقة بما حدث ويريد أن يعرف هل قبل العمل هناك أو لا، كان هو أول وجهٍ طالعه في مدخل الفندق وقد ارتدى حلة حمراء وقبعة سوداء، كان يبدو مختلفًا للغاية، يبدو أكثر هدوءًا ووقارًا، وكذلك واثقًا من نفسه، كان يعمل حامل حقائب بالفندق الآن.

ابتسم "علي" حينما رآه وهو يمد يده ليصافحه في حرارة، هنأه "محمد" بالوظيفة الجديدة وهو يقول له:

- عذرًا على أنني لم أتابع موضوعك في اليوم الثاني، كنت قد وعدتك بسكن ولكني انشغلت فلم أفعل.

قال له "علي":

- لا بأس، إدارة الفندق هنا وفرت لي سكن في شقة المغتربين وقد أعطوني نصف شهر مقدمًا أجَّرت بها غرفة فوق السطح لكي أسكن فيها أنا ووالدتي.

تردد "محمد" للحظة قبل أن يقول له:

- بالمناسبة، أين والدتك، هل ستعود للمعلم إسماعيل بعد انتهاء عدتها؟

- لا لن تعود.

- لماذا؟ هل رفض؟

- لا أنا رفضت، بعد أن طلقها صديقك، جلست مع نفسي وتأملت كلامك، وقلت لن أستسلم لظروفي، في الماضي كنت صغيرًا ولا حول لي ولا قوة، اليوم أنا رجل ولكن لن أكون رجلاً بالكلام، كانت تهم بالعودة للمعلم "إسماعيل" ولكني رفضت، وقررت أن تكون مسئولة منّي.

- وهل قَبِلَت؟

- في البداية تعجبت، ثم بكت من الفرحة، شعرت أنني رجلها حقيقة الآن، لا تتصور شعوري يا أستاذ "محمد" وكأني وُلِدت من جديد، نعيش سويًّا في هذه الغرفة المؤجرة ولكني وعدتها أن نعيش في شقة خاصة بنا قريبًا.

- أنت تستحق كل الخير.

- وأنت من وهبني هذا الخير.

ابتسم "محمد" وهو يربت على كتف "علي" قائلاً:

- لا هو من عند الله، نحن أسباب فقط.

قالها "محمد" وهو يودعه وينصرف وفي قلبه ترتسم ابتسامة عريضة، لقد أنقذ في بحثه روحًا تائهة وأعادها إلى صوابها، ويكفيه هذا النصر اليتيم من هزائم بحثه.

***

اندهشت "مريم" حينما أخبروها أن لديها شخصًا ما لزيارتها، كانت فقط تنتظر زيارات من محاميها الذي وكلته للدفاع عنها، تمر بأيامٍ سيئة مؤخرًا وهي داخل محبسها وخصوصًا أنها تتعرض لتحرشات من قبل زميلاتها بالزنزانة، انقطع أهلها عن زيارتها وكأنها صارت منبوذة منهم وتعلم أنهم لن يغفروا لها جريمتها مهما كانت المبررات.

حينما دلفت إلى مكان الزيارة، رأت "محمد" يجلس منتظرًا إياها واضعًا يديه أمامه وهو شارد، همت بالتراجع ورفض الزيارة ولكنها لاحظها فهتف فيها بسرعة:

- "مريم".

واجهته بملامح واجمة وهي تتقدم منه في خجلٍ، لا تدري ماذا سوف يقول ولا كيف ستجيبه وهي التي تسببت في دخول أخيه الوحيد في جريمة لم يرتكبها، وقفت أمامه منتصبة قبل أن يشير لها بالجلوس قائلاً:

- لن آخذ من وقتك الكثير.

تنهدت دون أن تنظر له وهي تقول:

- خذ ما شئت، وقتي أصبح بلا ثمن، حياتي القادمة ستكون إما سجنًا مؤبدًا أو نهاية لحياتي التعسة.

نظر لها وقد أدرك حجم ما تعنيه قبل أن يقول:

- لا عليك، هذا قدر الله.

تطلعت له وهي حانقة قبل أن تقول:

- نعم قدر الله، لربما لو تبدلت معي لكنت في مكاني الآن وترتدي ثياب السجن.

- ما كنت لأقتل أمي مهما فعلت.

- منذ قامت بكل ما قامت به، لم أعد أعتبرها أمي، كنت أشعر بالتهديد مؤخرًا وأنا أرى ما بناه أبي يضيع أمام عيني، كل تلك الفضائح المتوالية والخسائر المالية، شعرت بحجم المعاناة التي سيعيشها ذلك الصغير "عمرو" حينما يشب ويجد أمًا يعاير بها وفقرًا ينتظره، فكان أن حسمت أمري وقررت قتلها.

- للأسف أخي كان الطرف الذي سيخسر في وسط تلك العلاقة الملتبسة.

- آسفة بشأن أخيك، لم أقصد ذلك، كنت مغيبة ولا أدري ماذا أفعل، دخلت غرفتها بعد مغادرته، كنت بغرفتي منذ بداية الليلة وأنا أحتسي زجاجة خمر حتى تساعدني على الهدوء، دق "عمرو" بابي عدة مرات من أجل شيء ما يطلبه ولكن لم أفتح له، حينما شعرت بالشجاعة لأقوم بقتلها، قمت بسرعة نحو غرفتها، كان أخوك قد غادر منذ فترة، وجدتها نائمة بثيابها الآثمة، وبجوارها طبق فاكهة وبه سكين، لم أشعر بنفسي سوى وأنا ألتقط السكين وأغمده في قلبها، فتحت عينيها للحظة وهي تتأوه ونظرت لي في ذهولٍ ثم أغلقت عينيها

إلى الأبد، فرحت للحظة ثم شعرت بهول ما فعلت، فجلست بجوارها أبكي قبل أن أمحي آثار بصماتي من الغرفة والسكين، فوجئت وأنا أفعل ذلك برسالة أخيك، رغم أنها أثّرت بي ولكني مزقتها رغمًا عني..

قاطعها "محمد" قائلًا:

- أخبرني "مالك" بفحوى الرسالة وودتُ لو قرأتْهَا أمك لربما غيَّر ذلك من نظرتها للحياة.

تنهدت "مريم" وهي تقول:

- أنا لست فتاة سيئة يا "محمد" ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي.

لم يجبها "محمد" وهو يقف منتصبًا قبل أن يقول:

- حقيقة، أتمنى لو لم أكن مكانك، ولكن ليكن الله معك على أي حال.

الفصل الثالث عشر

(أين ناهد؟)

جلس "محمد" على شاطئ البحر ينظر في شرود إلى المياه الزرقاء التي انهمكت في غسل أقدام الرمال، يشعر أنه قد مضى عليه دهرًا في بحثه، لم يكن ليتخيل أن كل هذا حدث في عشرة أيام فقط، مر بها بكل ما لم يكن يتوقعه وطال الشر أسرته كلها في سبيل وصوله إلى الحقيقة.

أحس أن الله يعاقبه على بحثه هذا، لربما هو جحد بنعمة أبويه، ربما أغضب قلب أمه، ربما أراد الله أن يلقنه درسًا على أنه ترك ما أعطاه الله له وبحث عن شيءٍ أراد الله حرمانه منه.

لعله ليس من المصادفات أن الأمهات اللائي وجدهن في طريقه لم يَكُنّ أمهات مثاليات في نظره ولا في نظر أي إنسان عادي، المسألة عقاب إلهي ربما، الرسالة واضحة كلما واصلت بحثك وجدت ما يسيئك.

لا يعلم لماذا تذكر المسلسل التركي القديم الذي روته له والدته (فاطمة جول) كان يحكي عن فتاة مغتصبة تركها حبيبها لأنها مدنسة ومضى بعيدًا، وشاء القدر أن يرتبط بعلاقة عاطفية مع مومس عاهرة تبيع جسدها للرجال بلا تمييز.. وكأن الله أراد أن يعاقبه لتركه فتاة طاهرة قاومت مغتصبيها فأرسله إلى فتاة مرَّ عليها كل الرجال بلا ممانعة.

ولكنه لم يفعل ذلك جحودًا ولكنه باحث عن الحقيقة، هو فعل ما فعله الإمام (الغزالي) حينما درس كل المذاهب قبل أن يهتدي إلى المذهب الأخير الذي هو عليه بأنه أحسنهم.

ليس كل من يبحث عن مستقبل بديل هو شخص سيء أو يكره حياته الحالية، هناك مثلاً (منى سيمبسون) الكاتبة الأمريكية الشهيرة أخت (ستيف جوبز) الشهير رئيس شركة أبل، كانت هي وأخوها قد وهبا للتبني لعائلتين مختلفتين لأنَّ أباها السوري وأمها الأمريكية لم يَقْدِرا على تحمُّل مسؤليتهما ورغم أنها قد قد حصلت على حياة رائعة إلا أنها أصرت على البحث عن أبيها البيولوجي، وكتبت رواية شهيرة عنه اسمها الأب المفقود.

تنهد وهو يحاول أن يراجع ما آلت إليه الأمور، ها هو "مالك" خرج من السجن والعجيب أنه أقوى من ذي قبل، وكأنه أخذ من السجن ولم يأخذ السجن منه شيئًا، أمه وأبوه بخير، أم "علي" وابنها يشقان طريقًا جديدًا في الحياة، شعر بالأسى لموضوع "نوني" وقد قادها سلوكها للموت على يد ابنتها، وزيارته لـ "مريم" بمحبسها جعلته يتعاطف مع تلك الأسرة المسكينة كلها، لم يستطع مساعدة "مريم" كما وعدها وهذه يشعره بالضيق.

ولكنه تذكَّر كيف أسعف بحثه في إنقاذ "علي" وأمه من رحلة الضياع الشهيرة مع تيار الحياة الجارف.

شعر بيد تربّت على ظهره، تلفت ليجد أباه فابتسم ابتسامة مرهقة وهو يقول له:

- أهلاً يا أبي، كيف عرفت أنني هنا؟

قال له أبوه وهو يجلس إلى جواره:

- لم أعرف بالتخمين طبعًا، كنت أراقبك منذ غادرت المنزل، أنت لست على ما يرام هذه الأيام بعد ما حدث، وشعرت بالقلق عليك.

وضع "محمد" يده على كتف أبيه قائلاً:

- يحفظك لي يا "حسحس".

- هكذا أنا اطمأننت عليك، منذ زمن لم تنادِني "حسحس".

- والله، أمي احتفظت بهذا التدليل حصريًّا لها.

- إذًا ماذا ستفعل الآن؟

- لا شيء، سأعود إلى حياتي الطبيعية، هناك عمل لي على مركب بحري يعمل في (بنما) وسأذهب للحاق به قبل أن يفوتني ذلك العرض الرائع.

- وماذا عن بحثك؟

- ماذا عنه؟

- ألن تكمله؟

- بعد كل ما حدث، لا أقوى على ذلك.

وقف والده وهو ينظر له متعجبًا قبل أن يشير له أن ينهض وهو يسير إلى جواره قائلاً:

- انظر يا بني، أنا أقارب عامي الخمسين الآن وقد عشت في الخمسين عامًا مائتي شتاء وخريف وصيف وربيع، من تَعاقُب الفصول تعلمت أنَّ الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، يعصف بنا الشتاء فنصبر فيكافئنا الله بالربيع ويحرقنا الصيف فنصبر فيكافئنا الله بالخريف، وحينما لا نشكر على نعمة الخريف أو الربيع يأتي بعدهما الشتاء والصيف ليردانا إلى التسليم بالقضاء ردًّا جميلاً.

قال له "محمد" وهو يهز رأسه:

- ما الذي تقصده يا أبي؟

توقف أبوه وهو يقول:

- ما أقصده هو أن الحياة مد وجزر، خير وشر، سراء وضراء، مشاكل وحلول، لا ينبغي لأول مشاكل تقابلك في أي مهمة أن تتراجع

عنها، انظر إلى أخيك "مالك".. لقد خرج أقوى مما ظننت، هناك من يدخل السجن ويخرج محطَّمًا وهذا النوع من الناس معدنه فخار ينكسر لأي شيءٍ وهناك من يخرج متماسكًا وهذا النوع معدنه صلب، أنا لا أريدك فخارًا.

- ولا أنا أريد نفسي كذلك، ولكنك ترى كيف جرَّ هذا البحث علينا المشاكل وكأن الله يأمرني ألا أكمل فيه.

- حسنًا يمكنك نسيان الأمر ولكنك ستبقى طوال عمرك تتساءل عن الذي فاتك، مِن منطلق ماذا لو؟ وستمر السنين وستندم أنك لم تكمله.

- أراك تحفزني للأمر، ألا تخشى أن أجد في النهاية ما يسرني في بحثي؟

- تقصد أن تجد أبًا بديلاً لك أفضل مني؟ لا أطمئن لا أقلق لأجل ذلك، أعرف أنني لست أبًا مثاليًّا ولم أكن كذلك يومًا قط، ولكني أعرف أنني أحبك مثلما يحب أيُّ أبٍ مثالي ابنه، ربما لا أعبر عن حبي بالشكل المناسب فقط.

- حسنًا حتى لو حاولت إكمال الرحلة، هل تظن أمي ستوافق بعد كل ما حدث؟

- أتتصور أني لم آخذ رأيها؟

- وهل وافقت؟

- لا طبعًا، صرخت وقالت المرة القادمة ستدخلنا كلنا السجن ولهذا سنضعها أمام الأمر الواقع، اذهب وأكمِل بحثك، ما اسم المرأة الأخيرة؟

أخرج "محمد" الورقة من حافظته وهو يقرأه في هدوءٍ:

- (ناهد وليم ناشد).

صمت "حسام" للحظة قبل أن يقول:

- إذًا ماذا تنتظر؟ اذهب الآن وابحث عنها وعن ابنها، هذا كان آخر مستقبل محتمل لك وسيهمك أن تراه.

نظر "محمد" لوالده في فرح قبل أن يحتضنه في قوة وهو يقول:

- أشكرك يا أبي، لقد أرحت صدري.

ربت أبوه على صدره وهو يقول:

- رفقا بأبيك، صحتي لم تعد تحتمل الأحضان القوية.

انسلَّ "محمد" من حضنه برفقٍ وهو يقول:

- ربنا يحفظ لك صحتك يا شيخنا.

جلس "حسام" على الشاطئ وهو يقول لابنه:

- هيَّا، سأنتظر هنا قليلاً للتمتع بهذا الجو الجميل، ليت أمك معي الآن لكي نستمتع بهذا المنظر سويًّا ونحيا أيام الشباب، لنتقابل على الغداء، لا تتأخر على بنهاية البحث السعيدة.

لوح له "محمد" وهو يغادر قائلاً:

- سيحدث، لو تأخرت عن ثلاثة أيام أبلغ الشرطة.

ضحك "حسام" ضحكة لم تخفِ قلقه وهو يتابعه بعينيه حتى انصرف من مجال نظره.

قاد "محمد" سيارته في سعادة غامرة، لقد أراح والده كاهله حينما طلب منه أن يعاود بحثه، على الأقل حصل على مباركة أحدهم في ذلك، هذه رحلة وهو رحال وعليه الوصول لآخر الطريق، لا توجد قصة بدون نهاية والنهاية لم تكتب بعد وهو على وشك اكتشاف نهاية قصة بحثه.

***

كان العنوان المذكور لـ (ناهد وليم) في منطقة (فلمنج) وهي من المناطق الجيدة بالإسكندرية لا هي بأحياء الفقراء ولا هي بمناطق

الأغنياء، سار يقود سيارته حتى وصل هناك ثم ترجل منها وأخذ يسأل حراس البنايات أو بائعي المحلات عن العنوان حتى اهتدى إليه.

كان بيت من ثلاثة طوابق فقط، يحيط به سور صغير وبداخله حديقة مهملة، هناك سلسلة على باب البيت عليها صدأ كبير وبقايا أتربة توحي أن أحدًا لم يدخل هذا البيت منذ زمن بعيد.

شعر بالحيرة، هل ضل عنوانه أم أن أهل البيت تركوه، طاف حول البيت عدة مرات يحاول تقصي إن كان به بصيص من حياة ولكنه لم يجد، لاحظ أن هناك كشكًا خشبيًّا يبيع المرطبات قد توقف صاحبه ليتفحصه في ريبة، اقترب منه وهو يلقي التحية وهو يسأل الرجل:

- هل تعرف أصحاب هذا البيت؟

- لا لم يحدث لي معرفتهم، أنا أملك هذا الكشك منذ عشر سنوات ولم أرَ أيَّ أحدٍ يسكن هذا البيت.

- أبدًا؟

- أبدًا..

- حسنًا، هل تعرف أحدًا هنا قد يعرف؟

- أنا أقدم واحد فيمن أعرفهم هنا، إن لم أدلك فلن يدلك أحد آخر.

شعر "محمد" بأنه قد وصل إلى طريق مسدود فشكر الرجل ومضى قافلاً إلى بيته، وهو يفكر كيف سيجد (ناهد) الأخيرة؟ لماذا هذه بالذات تعثَّر في الوصول إليها على خلاف البقية؟ لقد كان إيجاد أم "علي" و "نوني" مثل سهولة قصص الأطفال، فما بال الوصول لهذه الأخيرة مثل الأحاجي البوليسية.

قاد سيارته وهو يغادر المنطقة وهو يحادث نفسه قائلًا:

- حسنا، الله لا يريدني أن أراها أو تراني، ربما هذا أفضل لك يا "محمد" لعل المانع خير، لا أعلم لعل الله جنبني شرًّا عظيمًا إن وجدتها، لتكن هذه كلمة النهاية في البحث وليمضي في حياته قدمًا.

وصل بسيارته إلى منزله وقام بركن السيارة في المرآب المخصص له ثم سار بسرعة يقصد شقته، كان والده ينتظره في البيت في غرفة المكتب كالمعتاد، ألقى التحية على والدته ثم دلف له بسرعة، ابتسم والده له وهو يقول:

- ها، ما الأخبار؟

- لا شيء، شارع مسدود.

- ماذا تعني؟

- البيت مغلق ومهجور منذ عشرة أعوام أو أكثر ولا أحد يعلم عنهم شيئًا.

- مستحيل، لو كان البيت مغلقًا فهو في النهاية مملوك لشخص ما، ويمكنك تقصي ذلك الشخص، لتجرب غدًا أن تسأل في الحي عن مُلَّاك ذلك البيت لتتأكد من هويتهم والباقي سهل.

- وماذا يحدث لو اهتديت لأسماء مُلَّاكه؟

- ربما اسم زوج "ناهد" يكون معروفًا أو لو البيت باسم عائلة فيمكننا تقصي لو نعرف أحدًا من هذه العائلة، هي محاولات على كل حال.

- محاولات ماذا؟

كانت هذه العبارة صادرةً من "أماني" التي وقفت عند باب المكتب متحفزةً وقد شعرت أن هناك شيئًا ما يريب في حديث الأب وابنه فابتدرها "محمد" بسرعة:

- محاولات لمعرفة أيهما الأجمل يا أمي، ملامحك الحسناء أم طباعك الجميلة؟

ابتسمت رغمًا عنها وهي تقول:

- كذاب مثل أبيك ولكن كذبك جميل، هيَّا للغداء فأنا شهيتي مفتوحة اليوم.

سار "محمد" معها و "حسام" يفكر مليًا قبل أن يفتح حاسوبه المحمول وهو ينقر عليه في سرعة، حينما عاد "محمد" له لكي يستدعيه للغداء وجد "حسام" قد خطَّ بضع كلمات في ورقة وهو يقول له:

- هذه ستساعدك.

تأمل "محمد" الكلمات، كانت تحمل اسم كنيسة ومعها عنوان فقال متعجبًا:

- ما هذه؟

- لو العنوان في (فلمنج) كما تقول فهذه أقرب كنيسة لهناك، يمكنك أن تسأل في الكنيسة عنهم، هم يعرفون بعضهم جيدًا وسيدلك أحدهم عن مكانهم بالتأكيد.

- فكرة جيدة يا أبي، هيَّا الطعام يناديك.

- ماذا لدينا اليوم؟

- حساء طماطم من الذي تحبه، وسمك بحري.

- أمك سعيدة اليوم، لم تتحفنا بهذا الطعام منذ فترة، لنأكل الآن ولنكمل البحث غدًا.

***

في اليوم التالي توجه "محمد" إلى إدارة الحي الذي تتبع له منطقة سكن "ناهد" وكعادته خرج يسب ويلعن من هناك كأي مواطن مِصري، البيروقراطية العتيدة تأبى مغادرة موطنها الأصلي في دواوين الحكومة رغم التحديث الجزئي في الآلات والمباني، حاول حتى رشوة

أحدهم لكي يحصل على معلومة تفيده ولكنه بدا واضحًا جدًّا في الرشوة مما سبَّبَ حرجًا للرجل فابتعد عنه.

جميلة هي الرشوة حينما تأتي في ثوبٍ من العسل يغطيها.

على أي حال قرَّر اللجوء إلى الاقتراح الذي وضعه والده في طريقه بالذهاب إلى الكنيسة نفسها التي يتبعها مسيحيو (فلمنج) في صلاتهم لربما حصل على إجابة شافية.

وصل إلى الكنيسة، لم يكن اليوم مميَّزًا فلم يكن الأحد أو الجمعة ولم يكن هناك عزاء أو زفاف بالكنيسة، كان هذا مناسبًا له تمامًا فلم يكن يريد أن يجد نفسه وسط حشدٍ كبيرٍ غَيْرِ قادر على السؤال.

سار بخطوات هادئة نحو الكنيسة، كانت كبيرة للغاية وبداخل حرمها حديقة مزدانة بشجيرات من الريف الأوربي، هناك رجلا أمن يقفان على بابها وهناك بوابة إلكترونية لكشف الأسلحة، ترى هل سيسألانه عن هويته؟ هل سيسمحان له بالدخول لو رأيا أنه مسلم؟

تحيَّر بين قول السلام عليكم أو مساء الخير حتى يلقى القبول لديهم قبل أن يلتقط نفَسًا عميقًا وهو يتقدم منهم قائلاً:

- السلام عليكم.

نظر له أحد الرجلين متعجبًا، ولكن الآخر أجاب التحية بأحسن منها قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أود مقابلة أحد القائمين على الكنيسة، كاهن ربما أو مسؤول أنشطة، اسمي (محمد الخطيب).

أعقب كلمته بأن أخرج بطاقته هوية من جيبه وقدَّمها للرجل، كان الحارس الآخر يبدو متوترًا ولكنه لم يعِره انتباهًا، تأمل الحارس الودود تلك الهوية وهو يضعها معه ويقول له:

- وما سبب الزيارة؟

- طلب معلومات.
- معلومات من أي نوع؟
- لنقل إنها معلومات من نوعٍ خَاصٍّ لا أستطيع التصريح لك بها.
- حسنًا، انتظر هنا حتى أعود لك.

تركه الحارس وانصرف للداخل ليغيب لأكثر من عشر دقائق كاملة قبل أن يعود بصحبة راهب برداء أسود، أشيب اللحية وهو يتقدم في بطءٍ معه، عرفه الحارس بالراهب قائلاً:

- الأب "ميخائيل" راعي الكنيسة.

بادره "محمد" بالتحية قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، هل لي بكلمة معك؟

ابتسم الراهب وهو يقول:

- طبعًا، تفضل معي بالداخل، أنا تحت أمرك.

تحسس الحارس المتوتر وصدرت منه حركة عدائية قائلاً:

- ألا ينبغي أن نفتشه يا أبونا؟

عاد الأب ينظر لـ "محمد" مبتسمًا وهو يقول:

- الخَطِرون على أمن الكنيسة لا يلقون التحية ويطلبون الإذن.

سار معه "محمد" للداخل دون أن يتفوه بأي شيء، كان هناك صبيَّان صغيران يلعبان بآلات موسيقية في قلب الكنيسة، توقفا لحظة مرورالاثنين فأشار لهما الأب "ميخائيل" أن يكملا، قيل أن ينتحي ب "محمد" جانبًا ليجلسه وهو يسأله:

- خيرًا يا "محمد" كيف يمكنني أن أخدمك؟

- حسنًا، أنا أبحث عن سيدة مسيحية ربما كانت ترتاد كنيستك، ولكن من فترة طويلة اسمها (ناهد وليم ناشد).

نظر له الأب متمعنًا قبل أن يميل إليه قليلاً وهو يقول:

- ولماذا تبحث عنها؟

- أريدها في موضوعٍ خاصٍ.

- هل تبحث عنها منذ فترة طويلة؟

- منذ أكثر من عشرين عامًا.

ضحك الأب "ميخائيل" ضحكة قصيرة وهو يقول:

- لا تبدو لي اكثر من عشرين عامًا أنت أيضًا، هل تبحث عنها منذ ولادتك؟

تنهد "محمد" وهو يتراجع على مقعده قائلاً بهدوءٍ:

- لنقل أن مولدي ارتبط بها بشكل درامي في حياتي.

صمت الأب "ميخائيل" للحظة قبل أن يقول:

- هل يمكنني أن أعرف تفاصيل أكثر عن قصتك معها؟

لم يجد "محمد" ضررًا في إخبار الأب "ميخائيل" عن القصة منذ بدايتها حتى لحظة بحثه، طبعًا لم يتطرق إلى ما أصابه من ضرر وما جره على الآخرين بعد ذلك من مشاكل حتى وصل إلى تجربة مروره على مجلس الحي وعدم توفقه في الوصول إلى معلومة هناك.

قال له الأب "ميخائيل" متحيرًا:

- يا لها من قصة عجيبة، بحثك غريب ولكن لا أستطيع أن أمنعك منه، أنت باحث عن الحقيقة وعن الهوية في زمن ضاع فيه أغلب الناس من أنفسهم.

- إذًا هل ستعطيني معلومات عنها؟

- للأسف لا، أولًا ليس مصرحًا لي بإعطاء معلومات عن شعب الكنيسة ما لم يأذنوا لي بذلك وثانيًا أنا لا أميز الاسم، أليس لديك صورة أو ما شابه؟

تذكر "محمد" أنه قد أخذ صورة للبيت ففتح جواله وهو يقول:

- لا أعرف كيف تبدو في الأساس ولكن هذا هو منزلها.

- لست عرافًا لأعرف الناس من أشيائهم ولكن سأجري محاولة واحدة لك، لنعتبرها خدمة بسيطة للحقيقة، سنسأل عم (صبحي) خادم الكنيسة، هو يعرف كل رواد الكنيسة منذ ثلاثين عامًا إلى الآن بالاسم ولو كانوا يأتون إلى هنا فهو سيتذكرهم بالتأكيد.

في غضون دقائق كان عم (صبحي) قد أتى، رجل عجوز آخر بظهر منحنٍ وتجاعيد ملأت وجهه، لا يبدو من النوع الذي لديه ذاكرة أصلاً ضعيفة كانت أم قوية، عرفه الأب (ميخائيل) بشخصية "محمد" ثم سأله عن إن كان يعلم شخصية (ناهد وليم ناشد).

تفكر الرجل طويلاً وفرك شعيرات رأسه عدة مرات وهو يقطب جبينه، بدا على وشك البكاء وكأنه يتضرع لذاكرته أن تستجيب قبل أن تبرق عيناه قائلاً:

- (ناهد ناشد) أظن هذه زوجة المهندس (مينا موريس) لقد تذكرتهما، انقطعا عن زيارة الكنيسة منذ عشر سنوات أو أكثر، سمعت أنهما سافرا واستقرا في (كندا).

ردد "محمد" خلفه:

- (كندا) هل تعلم لهما عنوانًا هناك؟

ضحك الأب "ميخائيل" وهو يقول:

- أنا قلت أن لديه ذاكرة قوية ولكن لم أقل إنه من مخابرات (السي أي إيه) لا أظن أن هذا سؤال مناسب

ابتسم "محمد" قائلاً:

- شكرًا على أي حال يا عم (صبحي) وشكرًا يا أبونا، لقد ساعدتماني كثيرًا.

- العفو يا بني.

سار "محمد" ليغادر الكنيسة وهو يصر على شكر الحارس الودود الذي قابله على البوابة متجاهلاً الحارس الخشن الآخر نكاية فيه قبل أن يقود سيارته منصرفًا.

في الطريق إلى البيت، كان يشعر أن "ناهد" الأخيرة هذه تبتعد عنه ولا تقترب، كلما وصل إلى أقرب نقطة لها وجدها ابتعدت إلى أبعد نقطة عنه.

(كندا)

كيف له الوصول إلى (كندا)؟ حتى لو عرف عنوانها فلن يصل لها، هذا الأمر يحتاج عبور قارتين والسفر عبر المحيط، واجتياز آلاف الأميال في سبيل الوصول لها.

لتبقى هي حيث شاءت وليستكمل هو حياته بعيدًا عنها.

جاءه اتصال من "فريدة" في طريقه في المنزل فأجاب بسرعة:

- صباح الخير يا (فريدة)

- صباح الخير يا "محمد" أين اختفيت طوال الأيام السابقة؟

- أنت تعلمين، منذ انتهت الأحداث المؤسفة وأنا أستعيد صفاء ذهني قليلاً.

- ما رأيك أن تستعيده معي على أنغام (هاني شاكر) هناك حفل لإحياء ذكراه في النادي ولَدَي تذاكر مجانية، يمكنك الحضور.

- لا أظن أني أستطيع الليلة،كما أني لست في مزاجٍ يسمح لي بحضور الحفلات.

- حسنًا لنلتقي في أي مقهى ونشرب شيئًا خفيفًا على حسابك.

- يعني من تذاكر مجانية لشيء على حسابي؟ حسنًا يا "فريدة" سنتقابل في مقهى (الرواق) بعد نصف ساعة لو كنت مستعدة.

- أنا دائمًا مستعدة، ستجدني هناك فورًا.

أغلق جواله وهو يغير وجهته باتجاه مقهى (الرواق) ليصل هناك بسرعة، تخير مكانا جيدًا للجلوس وسرعان ما لحقت به "فريدة" فتصافحا ثم دعاها للجلوس.

سألته في سرعة:

- ما أخبارك؟

- أنا كما أنا، لا شيءَ جديدٌ، بالواقع أصبحت أخاف الجديد.

- كل هذا من أجل رحلة بحثك الميمونة.

- أنتِ تسمينها ميمونة وأمي تدعوها المشؤمة، اليوم كنت أنهي بحثي عن آخر أم محتملة لي، سألتُ عنها في الكنيسة ولم أجد لها أثرًا، قالوا هاجرت إلى (كندا).

- هل هي مسيحية؟

- نعم هي كذلك وزوجها مسيحي.

- إذًا لو حصل التبادل كما تقول، لربما صرت مسيحيًّا الآن، ألم تفكر في ذلك؟

- وما الذي بها؟ كلها أديان الله..

- لا أقصد شيئًا، ولكن قصدت هل كنت لتود ذلك؟

- صدقيني لقد فكرت في الأمر كثيرًا، هذه المرة الموضوع مختلف تمامًا، مع الأم الأولى كنت لأكون شابًا ضائعًا من طبقة فقيرة، ومع الأم الثانية كنت لأكون شابًا غنيًّا من طبقة ميسورة.. وفي الحالتين هو تغيير في الطبقة ليس إلا..

- ولكن هذه الأم الثالثة مختلفة تمامًا.

- صدقتِ، فالتغيير الآن لن يكون في الطبقة وحسب بل كذلك في الديانة وهذا سيغير كل شيء.

- لو كنت قد تبدلت وقابلتني لما أصبح بإمكاننا أن نكون معًا، أنت مسيحي وأنا مسلمة.

- فعلا ولكن بالنسبة لي ولك وأنت تعلمين قوة ما بيننا، أظن أن القدر كان سيجمعنا بشكلٍ ما، ربما تبدلت أنت أيضًا، ربما أسلمت أنا والتقيتك، أيقن أننا كتبنا لبعضنا.

- دعك منّي، هل كنت لتحب هذا، أعني لو صرت إلى غير ديانتك؟

صمت "محمد" للحظات قبل أن يقول:

- هل تعلمين ما هو التعصب، أن يعتقد الإنسان أنه غير محظوظ في أي شيء سوى أنه وُلِدَ للديانة الوحيدة التي تمثل الله وبقية الناس على ضلالٍ، المسلمون يقولون إن الدين عند الله الإسلام واليهود يقولون نحن شعب الله المختار والمسيحيون يقولون إننا أبناء الله وشعبه، وكل من وُلِدَ لأيٍّ من هذه الديانات يعتقد ذلك الاعتقاد، فأين الحقيقة؟

- الحقيقة أننا محظوظون فعلاً لولادتنا على الإسلام.

- ومَن أدراك؟

- لم أفهمك..

- لو وُلِدّتِ مسيحية كنت لتظنين المسيحية هي الأفضل وكذلك لو ولدت بوذية أو هندوسية، في اليابان يعتقدون أنهم خُلِقوا من الشمس، هل هذا منطقي؟

- ألست متعصِّبا لدينك؟

- ديني وهبته بالميلاد ولكن أبي وأمي علماني التدبر والتفكر فيه فصرت أنتسب له عن اقتناع، ولكني لا أستعلي به على أحد فلم يكن شيئًا اجتهدت فيه، بل مُنِحت إياه فلمَ أسخط أو أستعلي على من لم يُمنَحَهُ.

- أنت تحيرني، ظننتك للحظة متشككًا.

- لا لست متشككًا، ولكني أقول بأن لله رحمات لا نعلمها ولا ندري كيفية الحساب وحتى بيننا معشر المسلمين هناك من سيدخل النار

ومنهم الصوّامون والمصلون، وهناك من معاشر الديانات الأخرى من سيدخل الجنة بالتأكيد.

صمتت للحظةٍ فأمسك براحة يدها بين كفيه قائلاً:

- الحقيقة الوحيدة التي أعلمها أنني لو ولدت لأسرة مسيحية ربما كنت لأصبح راهبًا ولو ولدت لأسرة يهودية لحفظت التوراة ولو ولدت لأسرة بوذية لخدمت بالمعبد ولو ولدت حتى في وقت ظهور الإسلام في معشر كفار لرأيتني أحارب (محمد) وصاحبه بجانب أبو جهل وأبو لهب، نحن لا نزكّي أنفسنا على الله ولا نستعلي على أحد، هي فتنة الاختيار ولعلَّ الله نجانا منها.

- حسنًا لننسَ الموضوع، إذًا ماذا ستفعل الآن، هل ستطوي هذه الصفحة وتركز فيما هو قادم؟

- طبعًا.

- لا أصدقك.

- البشر نوعان محارب وهارب، أنا من النوع الهارب فلن أحاول مجددًا.

توقف عن الكلام وهو يشرب رشفة من فنجانه قبل أن يقول لها:

- كما أنَّ كل هذا قد شغلني عن أهم وظيفة في حياتي.

قالت له بلهفة:

- ما هي؟

- النظر إلى عينيك.

احمرت وجناتها خجلاً وهي تلمس بأناملها حدَّ الكأس قبل أن تقول:

- وأنا افتقدتك كثيرًا الأيام الماضية.

أمسك بيدها بين راحتيه وهو يقول:

- من الآن لن أنشغل عنك بشيءٍ أبدًا.. وهذا وعدٌ.

كان "حسام" منشغلاً بمشاهدة فيلم على التلفاز حينما دخل "محمد" إلى المنزل وألقى عليه السلام، جاوبه بمثلها وهو ينظر إلى عينيه لعلها تفصح عن إجابة ولكن عادت نظرة عينيه حاسرة إلا من إجابة غير شافية فسأله في هدوءٍ قائلًا:

- هل وجدت ما تبحث عنه؟

جلس "محمد" إلى جواره وهو يتناول كأسًا من الماء ليتجرعه على ثلاث مجيبًا إياه فيما بينهم:

- لا.. الطرق مسدودة.. العائلة هاجرت إلى (كندا)، لا يعرفون لهم طريقًا.

صمت "حسام" وهو يتفكر قليلاً قبل أن يقول:

- إذًا ما الذي ستفعله؟

- لا شيء سأركز في حياتي وأمضي قدمًا، ورائي أمور كثيرة.

- ألن تعافر قليلاً؟

- لا، يكفينا العفرة التي واجهناها إلى الآن.

- سلحفاة!

- ماذا؟

- أنت سلحفاة.

- ما الذي تعنيه؟

- أنت ابني إذًا أنت لا بُدَّ أن تكون سلحفاة مثلي، خلت أنك سترث من أمك صفتها وتصبح أسدًا، ولكن تصر على أن تأخذ مني كل شيء.

- أسد وسلحفاة! ما هذه الألغاز يا أبي؟

اعتدل "حسام" في جلسته وهو يقول:

- في إدارة الصراع، ينقسم الناس في مواجهتهم للمشاكل والتحديات إلى أربع فئات: سلحفاة، وأسد، وحمار وحشي، وحرباء، ودلافين، السلحفاة تتعامل مع المشكلة بالتهرب منها وهذا أسلوبي وأكثر ما

أكرهه في نفسي، أما الأسد فيفضل المواجهة ويفوز دائمًا وهذه هي أمك، والحمار الوحشي يحاول ولكنه يفوز أحيانًا ويخسر أحيانًا، والحرباء تفضل أن يخسر حتى تترك الآخرين يفوزون أما الدلافين فتفضل أن يفوز الاثنان في المشكلة من خلال الوصول إلى تسوية، من تحليلي لما حدث الآن أنت سلحفاة.

- ولماذا لا أكون حمارًا وحشيًّا؟ لقد وجدت اثنتين وتركت الثالثة، ألا يجعلني هذا أفوز بشكل جزئي على المشكلة؟

- ولماذا لا تريد أن تكون أسدًا؟

- يكفينا أمي في البيت تمثل الأسد، ثم عيب يا والدي تقارن أمي بالأسد، ألا تعلم أنها سبة قبيحة بمصر؟

- وهل والدك بمثل هذه السطحية، أنا أحلل الأمور من منظور علمي، "مالك" كذلك أسد.

- أبي، أنت تشعرني أننا في حديقة حيوانات مفتوحة، الحياة أبسط من كل هذه الفلسفات، هل تقول لي لماذا أنت سلحفاة إذا كنت تكره هذه الشخصية لهذا الحد؟

نظر له "حسام" وابتسم وهو يقول:

- لأن أبي ليس (حسام الخطيب).

صمت "محمد" للحظات وهو يقول

- صدقت لقد أفحمتني، حسنا ما الذي تريدني أن أفعله؟

قام "حسام" وهو يتجه إلى مكتبه فتبعه "محمد" صاغرًا وما إن جلس "حسام" على المقعد حتى سأل "محمد":

- أتعلم من مزايا الإنترنت أنه قرَّب المسافات بين البشر، وأوجد الغائبين كذلك ولكننا لا نحسن استغلال مزاياه.

غمغم "محمد" مدركًا ما يرمي إليه والده:

- فكرة جيدة، يمكننا أن نبحث عنها عن طريق الإنترنت ولكني لا أعرف سوى اسمها وأين كانت تقطن.

قال "حسام" بسرعة:

- هذا يكفي، كل ما ستفعله أنك ستضع صورة منزلها وتنشر أن من لديه معلومات عن أصحاب ذلك البيت يدلي بها لك على بريدك الإلكتروني أو يخابرك على هاتفك المحمول، ويمكننا أن نصل إلى دليل.

قال (محمد):

- لا يا أبي، أفضل رسالة مباشرة، إلى (ناهد وليم ناشد) صاحبة هذا المنزل، أريد التواصل معك بشكل عاجل وضروري لأمر هامٍ، من يصله هذا المنشور فليشاركه مع الآخرين.

رفع "حسام" يديه وهو يصافح ابنه في حرارة قائلاً:

- هذا أفضل من فكرتي، لتنفذها من حسابك الخاص على البنجو.

قام "محمد" ليجلس مكان أبيه وهو يقوم بتحميل الصورة على الجهاز ويكتب عليها المنشور قبل أن يتردد قليلاً في نشرها فيقول "حسام" له:

- ما بك؟

- مترددد..

ضغط "حسام" على خاصية النشر وهو يقول:

- هذه دفعة تشجعية مني.

انطلق المنشور ليظهر على صفحة "محمد" وهو يراقب التفاعلات الآتية عليه في قلق واضح.

الآن عليه الانتظار ليرى إلى أين سيقوده هذا الأمر.

الفصل الرابع عشر

(الخيط الجديد)

مرت ثلاثة أيام منذ نشر "محمد" منشوره على البينجو وشاركه على العديد من الصفحات الأخرى التي يديرها، ولكن لم يحدث جديد، في البداية كانت التفاعلات كبيرة والتعليقات أكبر وكذلك كمية المشاركات حتى إنه بدأ يتلقي العشرات من الرسائل والاتصالات غير المرغوب فيها فقد كان ينتبه لمكالمات من أرقام مجهولة، إحداها كانت مثلاً بعد منتصف الليل، جاوبه بقلقٍ:

- السلام عليكم

أتاه صوت امرأة ولكن صوتها أجش يقول:

- مساء الخير أنت تبحث عن (ناهد وليم ناشد)؟

- نعم هل تعرفينها؟

- طبعًا أعرفها.

- حسنًا دليني عليها؟

- كم ستدفع لي؟

- الموضوع إنساني بحت، لا يوجد دفع.

- إذًا انساني أنت أيضًا.

أغلقت الهاتف في وجهه وقدر أنها محاولة سخيفة لابتزازه ماديًا.

في الصباح التالي تلقى اتصالاً من شاب قائلاً:

- صباح الخير.
- صباح النور.
- هل تبحث عن (ناهد ناشد)؟
- طبعًا.
- عنوانها لدي، اكتب عندك.
- لحظة واحدة، أحضر ورقًا وقلمًا، أخبِرني ما العنوان؟
- 5 شارع سور الصين العظيم، عش المجانين.
- 5 شارع سور الصين الع... ماذا أنت تمزح على الصباح
- هاها ها ها ها..

أغلق سماعة الهاتف في حنق، كان يأتيه اتصالات كثيرة على هذا النمط طيلة اليوم حتى خفت المشاركات وخفت الاتصالات بعدها، لاحظ بعد انتهاء تلك الزوبعة الهادئة أن أمه ليست على ما يرام، منشغلة عنه دائمًا وتتجاهل الحديث معه، حاول معاكستها عدة مرات ولكنها صدته في غير لطف، هذه ليست طبيعتها هي تحزن فتبكي، تفرح فتضحك، تغضب فتثور، لا تتعود الصمت ولا تحب الكتمان.

لذا فاجأها مرة أثناء جلوسها تشاهد التلفاز بان أخذ جهاز التحكم عن بُعد وأغلق الصوت وهو ينظر لها في ترقب.. لم يبدُ أنها لاحظت ذلك وهي تتابع الشاشة في هدوءٍ فأغلق الشاشة وهو يترقب ردة فعلها فالتفتت له في برود قائلة:

- نعم، أي خدمة؟
- أنعم الله عليك، لا تكلميني منذ أيام.
- ولماذا لا أكلمك مثلاً، هل فعلت شيئًا يؤذيني؟
- لا أعلم، هل فعلتُ؟!
- اسال نفسك.
- سألت نفسي كثيرًا ولم أجد سببًا لإعراضك عني يا أمي الحبيبة.

- إذًا أنت تعرف أنني أمك؟

- طبعًا وأحلى وأعظم وأفضل أم بالكون كله.

- ومع ذلك مازلت تبحث عن أم بديلة حتى عبر الإنترنت، يعني فضيحة علني.

أطرقَ "محمد" رأسه خجلاً قبل أن يقترب من أمه ويهم بتقبيل يديها ولكنها صدته وهي تقف متنمرة وتقول:

- أتعلم طوال عمري، عشرين سنة كاملة وأنا أفني ذاتي في حياتك أنت وأخيك، حتى في غياب أبيك المستديم كنت ألعب معكما دور الأب والأم سويًّا، وأكثر من ذلك كنت الأخت والصديقة لك ولأخيك، لم أحرمكما من شيء ولم أستمتع بشيء بدونكما ثم تكون هذه مكافأتي، لا تزال في بحثك السخيف، ومن وراء ظهري كذلك، هل تظن أمك جاهلة، أنا لدي شهادتان جامعيتان وعندي خبرة السنين وأعلم عن الإنترنت من قبل ولادتك، أم نسيت؟

حاول "محمد" الأقتراب منها ولكنها عادت للجلوس وهي تعقد يديها أمام صدرها قائلة

- اذهب إلى أمك البديلة

اقترب منها بهدوءٍ وهو يلتقط مصحفًا من جوارها ويضع يده عليه قائلًا:

- أقسم بهذا الكتاب العظيم أني لم أقصد يومًا إيذاء مشاعرك أو أن أبحث عن شيءٍ لم أجده فيك، هي فقط رحلة بحث عن نفسي ولو أمرتني بالتوقف عنها الآن لفعلت.

قالت دون أن تنظر له:

- هذا قرارك وحدك، لو تريد الاستمرار فلن أمنعك.

- هل تريديني أن أتوقف؟

- هذا قرارك لوحدك كما قلت.

- إذًا سأتوقف.

لم يتغير شيء على وجهها وإن لانت أعصابها قليلاً، فأعاد المصحف إلى جواره وهو يجلس في صمت، فوجئ باتصال من رقم غريب، لم يشعر برغبة في الرد، قطع الاتصال، وصمت، عاد الاتصال مرة أخرى، قطعه وصمت، في المرة الثالثة شعرت والدته بالانزعاج فقالت له:

- أجب عن الهاتف.

- لا رغبة لي.

لم تجبه وإن تطلعت إلى الهاتف في صمتٍ، حينما عاد الاتصال للمرة الرابعة أجابت هي في سرعة:

- مرحبًا.

أتاها صوت أنثوي وقور يقول في هدوءٍ:

- هذا جوال (محمد الخطيب)؟

- نعم، من معي؟

- معك (ناهد وليم ناشد).

صمتت "أماني" للحظاتٍ وهي تنظر ل "محمد" قليلاً وهو يجاوبها بنظرة خاوية قبل أن تقول له:

- هل تحبني كأمك؟

- عدد الرمال والحصا.

ناولته الجوال وهي تقول:

- هذا لك..

تناول الجوال في دهشة من سؤالها وهو يضعه على أذنيه قائلاً:

- السلام عليكم.

- عليكم السلام أستاذ "محمد" بلغني أنك تبحث عني.

- هل أنتِ..؟

- (ناهد وليم ناشد)

نظر إلى أمه التي وقفت وقد ارتخت بساعدها على الأريكة وهي تنظر له في صمتٍ، لم يحر جوابًا ولم يدرِ ماذا يفعل ولكن أمه هزت رأسها موافقة في استسلام فعاد يقول:

- نعم أبحث عنك، كيف يمكننا التواصل؟

- أريد أن أعرف لماذا تبحث عني.

- موضوع طويل ولا أريد أن أحكيه على الهاتف، هل أنتِ بـ (مصر)؟

- لا ولكني سأكون في (مصر) الأسبوع القادم لمرة واحدة أخيرة، السبت القادم ستراني في فندق (شيراتون المنتزه) يمكنك أن تقابلني حينها.

- حسنًا، شكرًا لكِ، أُقدِّر لك هذا.

أغلق الهاتف وهو ينظر إلى والدته التي لم تعلق بكلمة قبل أن يفاجئها وهو يرتمي في أحضانها دون أي مقدمات، لامست شعره بأناملها قبل أن تقبل رأسه ويخلدان لصمتٍ عميقٍ.

***

مرت الأيام ثقيلة على (محمد)، مرَّ يوم كسنة ومر يوم آخر كشهر ويوم كأسبوع وآخر يوم مر كقرن عليه وهو ينتظر لقاء "ناهد" حتى إن من لا يعرف قصته يظن أن يذهب ليرى محبوبته للمرة الأخيرة ،كان من ناحية يود إنهاء بحثه للتفرغ لحياته ومن ناحية أخرى يود أن يسفر بحثه عن نيجة فعلية أو دفعة معنوية في حياته القادمة.

لا يريد أن يخرج من التجربة صفر اليدين ويعود بخفي حنين.

حتى أتى السبت فاستيقظ مبكرًا ذلك الصباح وهو يصلي الفجر ويسأل الله التوفيق وكأنه جنديٌ مقبِلٌ على الميدان، كان يخشى أن تحمل رؤيته لـ "ناهد" مشاكل أخرى عليه وعلى عائلته مثلما حدث مع

أم "علي" و"نوني" ولكنه قدَّر أن مباركة أمه هذه المرة للموضوع ستجعله يمر على خيرٍ.

مع نسمات الصباح الأولى خرج من المنزل، يشعر بشعور عجيب، رغم عدم مقابلته لها إلا أنه يشعر بشعور العبد قرب الانعتاق، شعور المريض وهو على وشك مغادرة فراش المرض، أو شعور السجين في آخر ليلة له بسجنه.

هو قاب قوسين او أدنى من إنهاء بحثه بحلوه ومره، بألمه وأمله.

وصل إلى الفندق في حدود الساعة التاسعة صباحًا، سأل عنها في الأستقبال، قبل أن يجاوبه موظف الاستقبال بأنها لم تسكن لديهم بعد، كان عليه توقع هذا، هي قالت السبت سأكون هناك وليس معناه أنها ستكون من صباح السبت.

شعر موظف الاستقبال بقلقه فأخبره بأنها غالبًا ستكون موجودة في حدود الساعة الثانية عشرة؛ لأن طائرتها ستصل إلى مطار الإسكندرية الدولي في تمام الساعة الحادية عشرة.

إذًا أمامه ثلاث ساعات أخرى، جلس بهو الفندق وطلب لنفسه قهوة فهو يشعر بدوار خفيف ولا بُدَّ له من البقاء متيقظًا، شرب قهوته ونظر إلى ساعته تكرارًا، كان الوقت يمر بطيئًا للغاية، حاول التفرس في وجوه كل الداخلين من بوابة الفندق، بعد الساعة الحادية عشرة علَّه يتعرفها ولكنه لم يحس أنها إحداهن، بالتأكيد ليست تلك الصينية الجميلة ولا الفتاة السمراء كالشيكولاتة ذات الضفيرتين هناك.

شعر بالملل فغرق في أفكار شاردة يزجي بها الوقت قبل أن ينتبه إلى أن موظف الاستقبال يشير له، هناك سيدة تقف إلى جوار مكتب الاستقبال مع رجل عجوز، سيدة في أواخر الستينيات، وقد أنهكها

الزمن، هل هذه هي غير معقول، هذه تصلح جدة له لا أم، ربما هم مخطئون، ربما ليست هي.

توجهت له في خطوات هادئة بطيئة لكبر سنها وهي تصافحه قائلة:

- علمت أنك تنتظرني منذ الصباح، هذه حماسة كبيرة نظرًا لكوني لم أصل بعد.

- أنا أبحث عنك منذ شهور، بل إن شئت منذ ولادتي.

- لقد شوقتني لهذا، اندهشت حينما أروني صورة منزلي القديم واسمي معه، لم يفهم جيراني الكنديون الأمر ولكن (هايمن) جاري لاحظ المنزل لأنني كنت قد أريته صورته منذ فترة لكي أريه نظام البناء في مصر قديمًا، لم يفهم الكلمات العربية فأعطاها لي لأترجمها، خيرًا، ما الموضوع؟

مالَ بجسده وهو يتأملها في عناية، عجوز تشي بأنها كانت يومًا ما جميلة، تخطت الستين تقريبًا أو أكثر، تجاعيد وجهها رسمها الزمن في غير قسوة، هذه سيدة عاشت عيشة طيبة طوال حياتها، تعجب كيف يمكن أن تكون أما لابنٍ في العشرين، تخلص من تأملاته بها بقوله:

- انا اسمي (محمد حسام) ولدت في الثاني عشر من يناير من سنة ألفين وأحد عشر، هل تذكرين هذا التاريخ؟

صمتت في لحظة وهي تتأمله في حزنٍ قبل أن تقول:

- لا أذكر في حياتي سوى تاريخين وهذا أولهما.

- لقد ولدتِ ابنا، أو ابنة في ذلك اليوم؟

- ابنا اسمه (مايكل).

- عظيم، كانت والدتي تظن خطأ أنني قد أكون تبدَّلت مع ابنك يومها، هي مجرد قصة غير حقيقية ولكني أردت رؤية مستقبلي

المحتمل لو حدث هذا فبحثت عن من كان اسمهم (ناهد) ذلك اليوم، ووجدت ثلاثة أسماء، كانت لي مع الاثنتين الأخريتان حكايات وحكايات وأنتِ الثالثة التي أختم بها بحثي.

- وماذا تريد من ذلك البحث؟

- أن أصل إلى هوية نفسي، إلى قدري، هل نخلق بأقدرانا أم نصنعها بأنفسنا؟

- وماذا تريد مني؟

- أريد أن أتعرف عليك وعلى (مايكل) كيف هو شكل حياته؟

صمتت للحظة قبل أن تخرج من حقيبتها صورة لتتأملها مليًا ثم تقول:

- هل ذكرت لك إني لا أحفظ سوى تاريخين اثنين في حياتي؟

- آه منهم عيد مولد ابنك، الثاني عشر من يناير.

- وكذلك العاشر من ديسمبر من عام ألفين وواحد وعشرين، هل تعلم لماذا؟

- .....

- يوم وفاته.

صمت "محمد" وهو يتراجع للخلف، لقد توقع أي شيء إلا أن يكون (مايكل) هذا وهو مستقبله المحتمل ميتًا، وعن عمر صغير يناهز العاشرة من عمره.

نظر لها بأسى وهو يقول:

- أنا آسف، البقاء لله، هل كان مريضًا؟

- لا كان في أتم صحة وعافية، ينعم في حمى الرب، لقد مات من غير مرض.

- البقاء لله مرة أخرى، وعذرًا على أنني قد قلبت في وجدانك ذكرى موجعة.

- ألا تريد أن تعرف كيف مات؟

- هذا إن لم يكن يزعجك.

- لا لن يزعجني أنا، لكن ربما يزعجك أنت.

- حسنًا..

- لقد استشهد في انفجار الكنيسة في ذلك الوقت، عملية إرهابية نفذتها جماعة إسلامية، بنو دينك.

صمت "محمد" ولم يدرِ ماذا يقول فقد فوجئ بلهجة المرأة الحادة وكأنها تشير بأصابع الاتهام له، هل يدافع عن دينه أمام المرأة الثكلى أم يعتذر لها وينصرف، هو يعرف دينه جيدًا، هو ليس غريبًا عنه وهو متعمق فيه إلى حدٍّ ما ويريد الانتصار له ولكنه يدرك حزن المرأة العميق على ابنها ولا يريد أن يحول الحديث إلى جدال مع امرأة وصلت لتوها من سفر بعيد، كما أن الحوار مع مجروح القلب غالبًا لا يجدي، أنت لا تشعر بألمه فكيف سيتفهمك!

قال لها "محمد" وهو ينهض من على مقعده:

- تقبلي اعتذراي وعزائي مرة أخرى.

قالت له السيدة وهي تتأمله بنظرة عميقة:

- هل كان يناسبك هذا المستقبل؟

لم يجبها وهو يقول:

- هي أقدار، كان في المكان والوقت غير المناسبين والموت لا يختار، هي أقدار.

- كان يمكن أن يكون أنت؟

- كان يمكن فعلاً.

- وكنت ستقتل على يد أبناء جلدتك؟

- أنتِ مُتعَبةٌ يا سيدة "ناهد" أنا أشكرك للقائي، وأدعوك للراحة الآن وشكرًا على وقتك الكريم معي.

قال عبارته وهو يخرج من جيبه ورقةً وقلمًا ويكتب رقمه عليها وهو يناولها إياها.

- اتصلي بي حينما تكونين بحاجة للحديث عن الأمر مرة أخرى، أنا متواجد بالإسكندرية طوال فترة وجودك.

أعطاها الورقة فأخذتها في صمت قبل أن ترد عليه قائلة:

- أتعرف شيئًا، لو بادلوني إيَّاه بألف منك فلن يعوضني عنه شيء.

لم يِجبهَا وإنما هز رأسه في تفهم وهو يغادر المكان في صمتٍ.

***

هز "مالك" أخاه "محمد" ليخرجه من صمته قائلاً:

- منذ نصف ساعة وأنا أتحدث ولا تجبني.

- لست في مزاج يسمح بالحديث يا "مالك".

- كل هذا لأنها قالت لك إن ابنها قد مات، وأن من قتله جماعة مسلمين، هؤلاء القوم يطلقون الأحكام عشوائيًّا، الإرهاب لا دينَ لَهُ وأظنك تَذْكُر أنَّ هناك مساجدَ كثيرةً بمصر قد فُجِّرت ومُصلّون قد قتلوا جماعيًّا بشكل عشوائي في السنوات الماضية.

- ليست عشوائية يا "مالك" أنا تتبعت الأخبار وقرأت عما حدث تلك السنة، تفجير كبير أودى بحياة سبعة أشخاص منهم ثلاثة أطفال، ابنها واحد منهم وأعلنت جماعة تسمى ظلال السيوف الإسلامية مسؤليتها عنه.

- إعلان المسئولية ليس دليلاً على أنها إسلامية، يمكنني أن أفجِّر لك معبدًا هندوسيًّا غدًا وأسمِّي نفسي جماعة الفئران المتشردة الكنفوشية وأعلن مسئوليتي عنه، أنت تعلم أن الدنيا معقدة ودنيا السياسة تحكمها ألف يد متصارعة، كما أن مصر شهدت مذابح بكنائس ومساجد بلا تفرقة.

- ليس هذا ما يحزنني فقط، بل تضايقت أنه كان يمكن أن أكون أنا.

- "محمد" يا أخي العزيز العاطفي، تبادُل الأماكن مع شخص لا يعني أنك ستتبادلون نفس المصير، مثلاً لو كان هو مصابًا بسرطان اللوكيميا لسبب في جسمه فهو كان سيموت في سنٍّ مبكرة أيا كانت العائلة التي نشأ في كنفها، وكذلك أنت لو تبادلت الأماكن معه فليس بالضروري أنك كنت ستموت ذلك اليوم وفي نفس المكان ونفس التوقيت، هذه أمور غيبية وأقدار لا يعلمها سوى الله.

- إذًا يا أخي الصغير العقلاني، بماذا تنصحني؟

- أنصحك بتجاهل الأمر ودعه يمر، لقد رأيت مستقبلك الأخير، طفلاً في قبرٍ وأم ثكلى وأب حزين، انتهى الموضوع، لنطوي هذه الصفحة ونحرق الكتاب ونذري الرماد في الهواء ثم نعوي مثل الذئاب.

- ليت لي مثل قلبك.

عقب "مالك" وهو يضرب على صدره بطريقة مسرحية:

- قسوة الأيام عليَّ قست قلبي يا أخي.

- "مالك".. لا تمزح.

- وأنت لا تأخذ الأمور بجدية كثيرًا هكذا.

- على العموم هل لم تعاود الاتصال بي منذ يومها وقد مضت أربعة أيام الآن، ولذا كما قلت سأنسى الموضوع.

خرجا خارج الغرفة عقب نداء أمهما لهما، ورأيا على المائدة وليمةً عظيمةً أعدَّتها الأم طوال الظهيرة، الطهي عندها عشق أزلي مهما كانت حالتها النفسية ولكنه يصبح أكثر تنوُّعًا حينما تكون بحالةٍ نَفسيةٍ جيدة ولفت ذلك انتباه "محمد" فعقب قائلاً:

- لا بُدَّ أنك سعيدة للغاية.

- طبعًا، لقد انتهت الأمور كلها على خير هذه المرة وأنت على وشك السفر، وكنت مع "فريدة" على الهاتف وأخبرتني أنك ستخطبها قبل سفرك، ولكني كنت أود أن أعرف هذا منك وليس منها.

ضحك "محمد" وهو يقول:

- وما ذنبي إن كان حببتي وأمي صديقتين مقربتين؟

قال له "مالك" مداعبًا:

- يا ويلك لو أغضبت إحداهما ستنتصر لها الأخرى فورًا، أنا رأيي تسعى بينهما بالمكائد حتى تفسد هذه العلاقة الحميمة، أين أخلاق زمان وناس زمان، أيام كانت الحماة مثل الحمى.

ضربته "أماني" على صدره قائلة:

- هل تعتقد أن أمك ستكون حماةً تقليدية، بالعكس أنا سعيدة بأن علاقتي بزوجة ابني المستقبلية قوية.

ابتسم لها "محمد" وهو يتناول طعامه قبل أن يدق هاتفه المحمول فيسرع بالرد قائلاً:

- مرحبًا..

أتاه صوت أنثوي يقول:

- معك "ناهد ناشد" يا "محمد" أريد رؤيتك مرة أخرى.

ابتسم "محمد" ولاح البشر على وجهه وهو يقول:

- طبعًا يا سيدة "ناهد"، متى وأين؟

- عصر اليوم مناسب، في مكان بيتي القديم، تعرفه بالطبع.

- آه طبعًا، أعرفه، سأكون هناك في وقت العصر تمامًا، شكرًا لكِ.

أغلق الهاتف بسعادة وهو ينظر إلى أمه وأخيه اللذين نظرا له في تساؤل قبل أن يقول:

- ماذا؟ كل كتاب لا بُدَّ له من نهاية وخاتمة، هل نترك الكتاب مفتوحًا..

قالت له أمه وهي تلقم نفسها بضع لقيمات:

- لنحرص على ألَّا يكون للكتاب جزء ثاني، مفهوم؟

جاوبها في سرعةٍ وهي يرفع كفه إلى رأسه بطريقة عسكرية:

- مفهوم يا أفندم.

الفصل الخامس عشر

(الغفران)

توقف "محمد" ليتأمل البيت في تفكر، كانت البواية مفتوحةً وقد نزع عنها السلسلة التي كانت تغلقها، دلف للداخل في حذرٍ.. الحديقة مهملة ونباتاتها قد ماتت منذ زمن بعيد، يا للخسارة كانت تشي بأنها حديقة جميلة، كان باب المنزل الداخلي مفتوحًا على مصراعيه، لم يشعر بأنه من الأدب الدخول هكذا لذا صاح بصوت مرتفع:

- سيدة "ناهد".

أتاه صوت رجل من الداخل يقول:

- تفضل يا "محمد".

كان هذا صوت السيد "مينا" زوج السيدة "ناهد" والذي رآه "محمد" في الفندق، كان رجلاً طاعنًا في السن، أصلع الرأس، سمينًا، يرتدي منظارًا طبيًّا أنيقًا وسترة صوفية مكتنزة سوداء، تقدم "محمد" للداخل، كان كل شيءٍ بالبيت قد علاه التراب، هذا البيت لم تطؤه قدمٌ منذ عشرة أعوام فعلاً.

صافحه السيد "مينا" بودٍّ واضحٍ وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، عذرًا لاستقبالك هنا وليس في الفندق، زوجتي أصرت على ذلك ونعتذر عما حدث بالفندق، كانت القلوب لا تزال مجروحة، وأنت نكأت جرحًا قديمًا كنت أظن أنه قد اندمل.

سأله "محمد" وهو يتفحص المكان:

- والآن؟

أجابه السيد "مينا" وهو يتخذ مكانه على مقعدٍ قريب ويُشير له بالجلوس كذلك:

- أنا بيني وبين نهايتي مسافة قصيرة ولا أحمل حزني على ظهري، لقد تركت الأمر خلفي من سنواتٍ، ولكن هي لم تستطع، لقد كان ابننا الوحيد وحدث الحمل بعد ثلاث عمليات حقن مجهري فاشلة، كان سنها وسني لا يسمح بالإنجاب، تخيل سعادتها به وهي قد تجاوزت الأربعين وأنا تجاوزت الخمسين، تخيل طفلاً صغيرًا لأبوين عجوزين ليس لديهما غيره، كان ملء العين والسمع ثم ذهب في لحظات، هي لم تحتمل، رغم مرور عشر سنوات، لم تطق الحياة في المنزل، كل ركن هنا كان يُذكِّرها به، كل شارع حولنا كانت تتمشى فيه معه، حتى الكنيسة لم تعد تطيقها، سألتني أن نرحل، فهاجرنا إلى (كندا) ومن يومها ونحن هناك.

أتاه صوت السيدة "ناهد" من الداخل:

- وسنعود إلى هناك مرة أخرى.

اعتدل "محمد" في وقفته حينما خرجت "ناهد" من داخل غرفة نوم داخلية وهي تنفض التراب عن نفسها وهي تقول:

- أظن أن "مينا" قد أفصح عن بعض من ذكرياتنا الأليمة، هل تسمح لي بأخذك في جولة بالمنزل يا "محمد"؟

تطلع "محمد" إلى المهندس "مينا" الذي هز رأسه مطمئنًا له فسار مع المرأة يصعد معها للطابق الأعلى، كانت تحمل عددًا من المفاتيح، فتحت أول غرفة وهي تشير له لما بداخلها لينظر، كانت غرفة طفل

صغير ومليئة بالألعاب وقد علاها كلها الأتربة وخيوط العنكبوت، تطلع "محمد" للداخل في إشفاق، المرأة وكأنها تجلد ذاته وذاتها في آن واحد.

قالت له السيدة "ناهد":

- هنا قضيت معه أفضل عشر سنوات في حياتي، كان الزهرة التي نبتت وأينعت في صحراء قلبي، أتعرف شعور اليائس حينما يأتيه الأمل أو الأعمى حينما يُرزَق البصر؟! كان هذا بالنسبة لي، عشر سنوات لعبنا معًا وضحكنا معًا، كان يتوجع فيسري الألم في جسدي أنا، وكنت أنام وأنا أتخيله يكبر أمامي، ها هو يذهب للمدرسة، ها هو يتخرج من الجامعة، ها هو يرزق بعمل عظيم ويحبه، ها هو يتزوج أمامي، ها هم أطفاله يحبون في منزلي ثم...

لم تكمل كلامها فقد خنقتها عبراتها فطفقت تبكي، قام "محمد" بالاقتراب منها وهو يربت على كتفها فأكملت من وسط دموعها قائلة:

- ثم ها هو أشلاء أمامي، وجدنا جسده بدون رأسٍ، بعد يومين وجدوا رأسه فوق سطح الكنيسة، ها هي جنازته، ها هو قبره، ها هي جِراء الكلاب تحبو على قبره.

شعر "محمد" بالألم يعتصر فؤاده فلم يغالب دموعه وهي تنسال على وجنتيه، توقفت السيدة عن البكاء وهي تقول:

- هل تعلم أنك تشبهه وهو يبكي، كان يبكي مثلك هكذا.

قال لها "محمد" وهو يكفكف دمعه:

- على الأقل هو الآن في مكانٍ لن يبكي فيه بعد الآن.

سألته في حزنٍ به لمحة من غضب مكبوت:

- وهل تعلم أنت أين هو؟

- بالتأكيد في الجنة.

- وما أدراك، ألسنا نذهب إلى النار في عقيدتكم؟

- كل أطفال الدنيا يذهبون إلى الجنة بلا استثناء وهناك يلعبون على جبل أخضر ويوكل برعايتهم سيدنا (إبراهيم) وزوجته السيدة (سارة).

- هل هذا حقيقي؟

- نعم حقيقي..

لانت ملامح السيدة "ناهد" وهي تقول وقد كفكفت دموعها:

- آسفة أنني تكلمت معك بشكل جاف في الفندق، كنت أتوقع أنك تسعى للحديث معي بأي موضوع آخر، في الواقع كنا قد نسينا موضوع البيت ثم لمَّا رأيته مرة أخرى على الإنترنت قلت لأنزل إلى مصر لأبيعه وأتخلص من كل ذكرياتي فلم يعد لدي ما يربطني بمصر أبدًا.

- لهذا قلت إنك قادمة لمرة واحدة أخيرة؟

- نعم سنبيع البيت غدا وننهي الأمر.

- وهل ستنسين فعلاً؟

صمتت للحظة وهي تقول:

- أتمنى أن أنسى، يا ليت الأمر بيدي، فقط لا أريد ما يجبرني على العودة.

- على أي حال، أعتذر عن كل ما جرى.

- أنا أيضًا أود أن أعتذر لك ولكن لي طلبان أخيران لديك، لو رأيت أحدًا ما عنصريًا أو طائفيًا من أي طائفة أو ملة أو شعب كان فقل له إننا كلنا بشر ولدينا أمهات تحزن لفقداننا أيًا كانت أدياننا، لندع الصراعات بعيدًا عن الأطفال. والطلب الثاني عد إلى أمك وأبيك وبِرّهما؛ فمهما بلغ بك تخيلك لن تدري كم يحب الوالدان أبنائهما.

ابتسم لها وهو يقول:

- سأفعل.

مدت يدها لتصافحه وهي تقول:

- مع السلامة يا "محمد".

صافحها بحرارة وهو يشعر بالراحة أخيرًا قبل أن يقول:

- مع السلامة يا أمي.

***

أخذ "محمد" يفكر شاردًا طوال الليل وهو يسير في الشوارع على غير هدى فيما حدث له في رحلة بحثه العجيبة، الرحلة لم تستغرق وقتًا طويلاً ولكنها مرت عليه وكأنها خبرات عقد كامل من الزمان، رأى أُسَرًا مبعثرة وأخرى مدمرة، رأى موتًا وقتلاً وأبناء تائهين وآخرين ضمهم التراب.

كان يعلم أن لكل رحلة هدفًا وكان هدفه البحث عن حقيقة ذاته وهويته وتساءل في قرارة نفسه هل وجد ذاته؟ ما الذي تعلمته يا "محمد" من هذه الرحلة؟ لا يستطيع أن يكتفي بقول أنه قد أدرك أن حياته جيدة وأنه لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع، هذه نتيجة معرفية بسيطة مقارنةً بصعوبة ومشاق الرحلة، كان يحتاج إلى الحديث مع

شخص آخر بصوت مسموع حتى يساعده على اكتشاف دروس رحلته العظيمة تلك ولم يجد خيرًا من والده في ذلك الشأن.

كان والده بمثابة صديقٍ له عند الحاجة، وحينما دلف "محمد" إلى مكتب والده توقف الأب عما كان يفعله وهو يبتسم له قائلاً:

- ماذا يا بطل؟ هل انتهى بحثك أخيرًا؟

- يبدو هذا..

صمت "حسام" وهو يتطلع له قائلاً:

- ولكنك لا تبدو سعيدًا؟

- ليس الأمر أنني لست سعيدًا، أنا لم أكن في بحثٍ عن السعادة، أنا كنت أبحث عن الهوية، ولكن الكنز الذي وجدته في نهاية المطاف ربما لم يكن يستحق عناء الرحلة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنا راضٍ الآن عن حياتي الحالية بكل ما فيها، ولكن هل هذا ما كنت أسعى له منذ البداية أم أن هناك شيئًا ما ينقصني فعله حتى تكتمل رحلتي؟

فكر "حسام" مليًا قبل أن يقول:

- حسنًا لنتعامل كالأطفال قليلاً ودعني أسألك ما الذي تعلمته من هذه الرحلة.

تنهد "محمد" وهو يقول:

- تعلمت أنه ليس بالضرورة أن اختلاف المكان والبشر يؤدي إلى نتائج أحسن، ولكل شخص قدره الخاص به.

- وماذا أيضًا؟

- تأملت أن كل رحلة لها مكاسب وخسائر وأنَّ على المرء تدارك خسائره قدر الإمكان، وأنني يجب أن أساعد الجميع في رحلتي.

- جميل، وهل تشعر أنك ساعدت أحدًا في رحلتك؟

- لا، لم أجلب سوى المشاكل للبعض والذكريات السيئة للبعض الآخر.

- أنت مخطئ في ذلك، لقد ساعدت الكثير دون أن تدري.

- كيف هذا؟

- لقد ساعدتني أنا وأمك أن نوقن أنك وأخوك قد كبرتما ولم تعودا أطفالاً يستحقون الرعاية وهذا سيجعلني أهتم بها أكثر وننطلق لنجرب كل ما لم نجربه بسبب ارتباطنا بكما، وساعدت أُمّ "علي" في الخلاص من زواج محرَّم كانت تختال به، وساعدتَ ابنها "علي" في أن يجد حياة حقيقية ووظيفة جدية لنفسه ويكفي أمه شر المذلة.

- ولكن لم أفلح في مساعدة "مريم" وكذلك السيدة "ناهد ناشد".

- بالنسبة لـ "مريم" ربما كان هذا قدرها، ربما هي اتخذت القرار الخاطئ، ولكن يظل قرارها في النهاية، كان الأمر ليصبح أسوأ بك أو بدونك.

- وماذا عن السيدة "ناهد ناشد"؟

- هذه تختلف، ربما كان بإمكانك مساعدتها في اجتياز أحزانها.

- كيف هذا؟

- هذا السؤال يجب أن تطرحه على نفسك وتدبر إجابته.

صمت "محمد" وهو يفكر مليًا، كيف له أن يساعد تلك الأم الثكلى في التغلب على أحزانها لفقد ابنها في ريعان طفولته، هي أوصته

بعدة وصايا عمل بها، ولكن يشعر بأنه بإمكانه تقديم المزيد لها، هو لا يستطيع إعادة ابنها مرة أخرى؛ فماذا عليه أن يفعل، اعتصر مخه بحثًا عن فكرة تعينه على ذلك قبل أن تبرق عيناه في جذل وقد اكتشف فكرة ربما تساعده على ذلك، نظر إلى أبيه نظرة ذات مغزى قبل أن يقول:

- وجدتُها..

- إذًا نفِّذ فورًا، ولك مني كل الدعم.

***

فوجئت السيدة "ناهد" باتصال من "محمد" في ساعة متأخرة من اليوم، كان قد مضى على لقائهما يومان فقط وشعرت بأنه اللقاء الأخير، سألها بلهفة:

- مدام "ناهد" هل بعتِ البيت أم لا؟

- لم نجد سوى مشترٍ واحد إلى الآن ويريد شراء البيت بثمن بخس.

- هل تريدين بيعه لأجل المال أم فقط للتخلص من الذكريات الحزينة التي به؟

- لا نحتاج للمال، نحن على أعتاب قبورنا، ولكن ذكريات البيت تؤلمنا.

- حسنًا لدي فكرة لك، هل أقابلك؟

- نعم بكل سرور، غدًا صباحًا في الفندق.

حينما قابلها "محمد" كان منتشيًا بالسعادة، لاحظت هي ذلك فابتسمت له قائلة:

- حسنًا، ما الفكرة التي لديك؟

- أنتِ لا تريدين بيع البيت لأجل المال، وفي نفس الوقت لا تستطيعين التعامل مع مَوت ابنك ولا يمكننا استعادته، ولكن يمكننا أن نمنع ما حدث من أن يحدث مع آخرين..

- يا ليت، ولكن كيف هذا؟

- ما رأيك أن نحول البيت إلى مكتبة عامة وصالون ثقافي يحمل اسم "مايكل"..

نظرت له للحظة مفكرة قبل أن تقول:

- فكرة لابأس بها، يمكنني ترك البيت لتحويله إلى مكتبة، ولكن كيف سيمنع ذلك ما حدث.

- العلم هو سبيل مواجهة الظلام يا أمي، ما حدثَ لكم وله لم يكن ليحدث لو أن الناس تقرأ وتعي وتعلم.

- حسنًا، إليك موافقتي ولكن كيف سنحصل على الكتب والمعدات وغيرها؟

- أبي سيتبرع لكم بمكتبه والمعدات والأدوات سنطرح حملة خيرية للتبرع وأنا على يقين أنه في غضون أيام سيكون المكان جاهزًا.

نظرت له "ناهد" وقد علاها السرور قائلة:

- "محمد" لا أدري ماذا أقول ولكن لقد شفيتَ قلبي مما به بفكرتك هذه.

ابتسم "محمد" وهو يقول:

- وأنتِ أكملت رحلتي..

عمل "محمد" بحماسٍ وهمة شديدين وهو يسرع في إجراءات تحويل بيت السيدة "ناهد" إلى مكتبة عامرة وتحمس الكثير من

الشباب لدعمه بالكتب حتى اكتظت المكتبة بها، قام بعض النحاتين كذلك بعمل تمثال صغير للطفل (مايكل) حتى يوضع في حديقة البيت التي اهتم بها بعض طلبة كلية الزراعة وأحيوها من جديدٍ، حينما رأت السيدة "ناهد" تلك الحديقة بعد أن انتهت بكت بشدة مما أثار قلق "محمد" وهو يقترب منها قائلاً:

- ألم ننسَ الحزن بعد؟

- هذه دموعُ الفرح يا "محمد" هذه المرة دموع الفرح.

- حسنًا إن كانت دموع الفرح، فلَدَيّ رجاء أخير لديك وأرجو أن تقبليه.

- ما هو؟

- أن تحضري زفافي.

صمتت للحظة قبل أن تنظر إلى زوجها في تساؤل فأوما السيد (مينا) برأسه موافقًا فعادت تقول:

- يسعدنا ذلك.

***

كان يوم زفاف "محمد" مميزًا للغاية، ظهر هو في حلة سوداء مميزة برباط عنق أزرق وظهرت عروسه في فستانها الأبيض الجميل وكأنها فينوس تتهادى على الأرض، سارا سويًّا بين المزفين حتى وصلا إلى مكان جلوسهما المحاط بالزهور الحمراء والبيضاء في تناسُق بديع.

كان الزفاف نهاريًّا وليس ليْلِيًّا وأصرَّا أن يجعلاه في حديقة تطل على الشاطئ بدلاً من الأفراح التقليدية داخل القاعات، وتوافد عشرات المدعوين من كل أنحاء (مصر) لحضور الزفاف الميمون من أسرتي

العروسين، حضر أصدقاء وصديقات العروسين وأفراد العائلة وحضرت السيدة "ناهد" وزوجها الأستاذ "مينا" كذلك، حتى إنه أم "علي" وابنها قد حضرا وتطوَّع "علي" بالمشاركة في خدمة الحاضرين وكأنه من أهل العريس تمامًا.

"مالك" أصر أن يقود السيارة ذلك اليوم وهي رغبة حققها له أخوه على تخوف كعادته، كانت سيارة بيضاء مزدانة بالزهور وبلا سقف، بينما ذرفت "أماني" الدموع حينما رأت ابنها "محمد" يزف إلى عروسه فقام "حسام" بمداعبتها قائلاً:

- دموعك هذه مثل المطر تنزل حزنًا وفرحًا، ولكن اليوم لن أعترض على ذلك فدموع الفرح مقبولة طيلة الوقت.

احتضنته في سعادة وهي تقول:

- لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية، ابننا البكر يتزوج أخيرًا..

ضحك لعبارتها التي أعادت إلى أذهانه ذكريات بعيدة من الزمن الماضي وهو يتابع العروسين بعينيه في فرح وسعادة غامرة.

وسط المدعوين كان هناك سيدة عجوز في الستين من عمرها ترتدي بدلة رسمية وقفت تتابعهم في صمتٍ قبل أن تتوقف "أماني" لتنظر لها في دهشة، كانت تذكر هذا الوجه، رأته من قبل ولكن لا تذكر أين، رحمتها السيدة من اعتصارات الذاكرة المؤلمة فسارت نحوها في هدوءٍ وهي تقول لها:

- سيدة "أماني"؟

- نعم أنا..

- كلمة على انفراد لو سمحتِ..

سارت معها "أماني" و"حسام" يراقبهما في دهشةٍ قبل أن يسير خلفهما ببطء حَذِرٍ علَّه يسمع حديثهما.

جلست السيدة مع "أماني" في مكانٍ منزوٍ قبل أن تشرع السيدة في الحديث قائلة:

- أنت لن تذكريني طبعًا، لم نلتقِ سوى مرة واحدة أثناء ولادة ابنك، كنتُ الممرضة التي أشرفت مع الطبيب على ولادتك، لقد تقاعدت الآن بالطبع ولم أعد أعمل.

قالت لها "أماني" وقد تهللت أساريرها:

- أهلاً وسهلاً، شرفتنا بحضورك الحفل.

- سمعت مثل غيري القصة التي انتشرت في الإسكندرية عن ابن "ناهد" وما حدث لابنك من قصص عجيبة بسبب هذا اللبس الذي وردَ على لساني.

ضحكت "أماني" وهي تقول:

- لا بأس لقد كانت حكاية معقدة والحمد لله الأمور جيدة الآن كما ترين.

ابتسمت السيدة وهي تقول:

- الحمد لله، فقط للتصحيح، حينما كنت أقوم بإفاقتك من التخدير لم أكن أقول، مبروك يا "ناهد" بل كنت أقول مبروك يا "نازك" لابد أنك لم تسمعيها جيدًا بسبب أثر المخدر.

- لا بأس، هي لعبة وقلبت بجد.

تعالى صوت "محمد" من الخلف يقول وقد سمع جزءًا من الحديث:

- أي لعبة؟

همَّت الممرضة العجوز بإخباره إلا أن والده أسرع يأخذه من يده بعيدًا عن المكان وهو يقول له:

- كأنك لم تسمع شيئًا.

ضحكَ "محمد" وهو يقول محتضنًا والدته من الخلف:

- لقد سمعت كل شيء، ولكن اطمئني يا أمي، لقد اكتفيت.

أسرع أخوه "مالك" يحتضنه وهو يقول له:

- ركز في عروسك يا عريس، اليوم يومك يا أخي.

سألت الممرضة العجوز في اندهاشٍ وهي تتابعهم يبتعدون:

- هل أخطأتُ بحضوري؟

ابتسمت "أماني" وهي تقول بعينين باسمتين:

- لا عليك، مهما بحث ابني عن أمهات سيعود إلى حضني موقنًا بأني الوحيدة التي أصلح أمه، هو ابني أنا وليس ابن "ناهد".